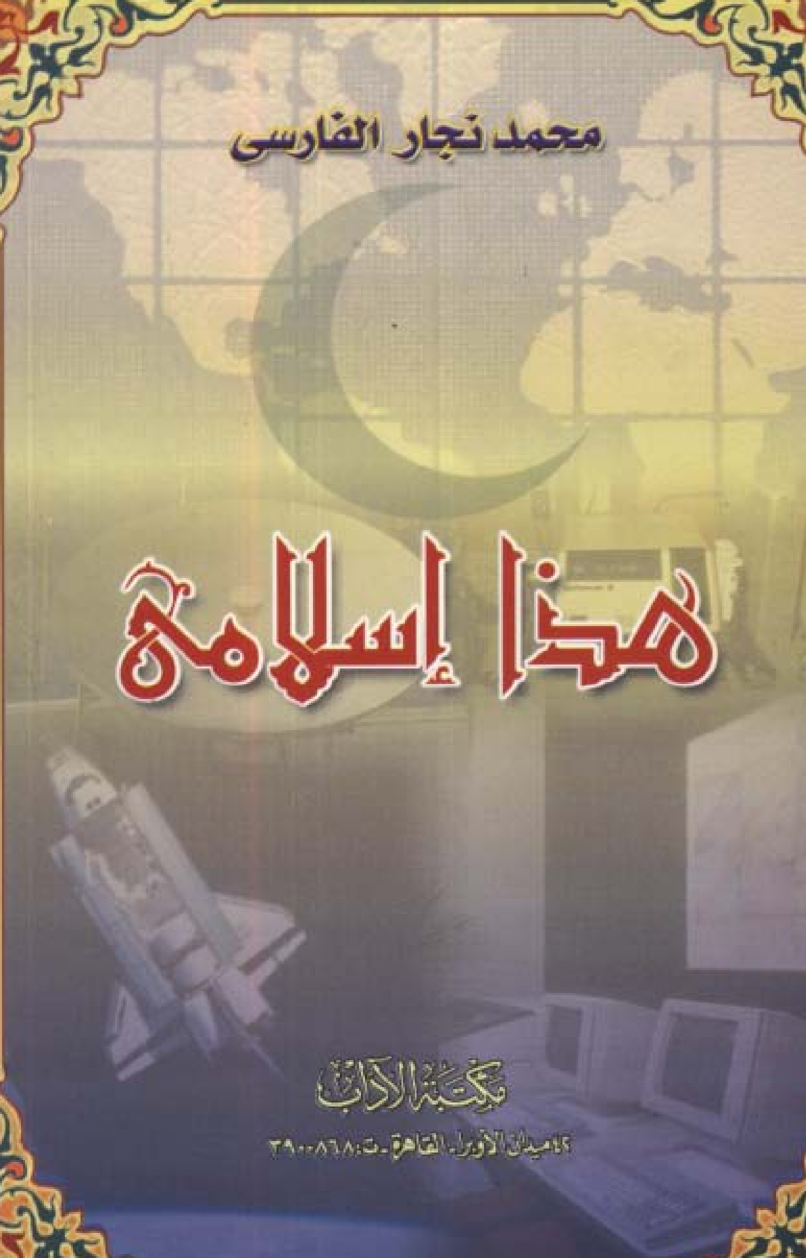


محمد نجار الفارسى

هذا إسلامي

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

محمد نجار الفارسى

هذا إسْلامِى

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
ت: ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ شَرَعَ لكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بهِ نُوحًا وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفرَّقُوا فِيهِ ﴾

صدق الله العظيم. [الشورى: ١٣].

إهداء

إلى العقلاء . . .

إلى المفكرين . . .

إلى كل ذى حِلْم ورَوِيَّة . . .

إلى كل هؤلاء الفارِّين إلى الحقيقة والساعين إليها .

م. ن. ف

مقدمة

كثرت فى الآونة الأخيرة الأقاويل عن الإسلام، وإلصاق التهم جزافًا بهذا الدين الحنيف، ونعت معتنقيه بالإرهاب والتخلف والرجعية والهمجية والحجرية، وسادت هذه المغالطات وراجت فكرتها فى جميع أنحاء العالم، الراكب فوق موجة التقدم والتحضر، واللاهث - مقطوعة أنفاسه - وراءها من أقصى الأرض إلى أقصاها، وهذا يرجع إلى ماكينة الإعلام الصهيونية بأنواعها المختلفة، التى جعلت المعمورة كقرية صغيرة، حتى وصل الأمر بنا كمسلمين أن نصدق هذه الأقاويل المغرضة الوافدة إلينا من الغرب ونتناقلها، بل شاع فى عقر دارنا - الخلط دون تفريق بين الملتزم والمتطرف - من يطلق لحيته ويرتاد المساجد يوصم بالإرهاب والتطرف، وبالطبع يرجع كل ذلك إلى التشويه والنقل المأفون من الإعلام الغربى نقلاً حرفيّاً بالضمة والفتحة والكسرة، وتأثرنا بجحافل الحملات الإعلامية الصهيونية المثابرة، ولنا مع أثرها على العالم وقفة أخرى.

ومما زاد هذه الفكرة - فكرة التطرف - شيوعًا الاستغراب، نعم استغراب المجتمع الإسلامى من إحياء للسنة إلى اتباع للسلف، إذ إنهم يندهشون لكل فعل يبعثه السلفيون - كما

يطلقـون عليـهم- فيـقـولون: رجعـيـه. . دروشه. . تشـدد. . تعصب. . إلى آخر هذه الكلمات المترهلة.

ولم ينتهوا إلى هذا الحد، ولكن أطلقوا عليهم ألقابًا كالسلفيين - من السلف - والأصوليـين - من الأصل، ولا ريب أنه قد برغ متنطعـون بين هؤلاء أشاعـوا فكرة التحـجر والتصلب الـعقلي، وبعض آخر بمجرد أن يحفظوا حديثين لمحمد ﷺ وآيتين من القرآن ينفـردون بالخطابة بين الناس، ويرددون الأحـاديث والآيات دونما إدراك لمقصـدها، ولا يتورع أحـدهم عن شرح الحـديث وتفسـير الآية، ويقول إنه اجتهاد مع جهله أصلاً بشروط الاجتهاد.

وفي هذا الجـو الكئيب المظلم المتـخبط بدت الفـتاوى الدينـية تنهمر فوق رؤوس العبـاد، فهذا يحرِّم وهذا يحلِّل وهذا يكرِّه في مسـألة واحدة، في حـين ثار جدلٌ عقـيم حول اتـباعنا الحـضارة الغـربيـة المادية أم لا، ومن ثم انـفجـرت الأسـئلـة على الألسنة وانتشرت كالنار في الهشيم، من عيِّنة: هل ركوب السيارة حرام؟ هل الثـلاجة حرام؟ هل التلـفزيون حرام؟! بل والأعـجب: أكل الخـيار، مـا حكمُ الدين فـيه؟! والملابس: البنـطلون والقمـيص والبدلة؟! ورابطة الـعنق ما حكمهـا؟ وبدأت نوعيـة هذه الأسئلة المتـافهه بسـبب جمـود قلة من المتنطعين المتـمسـحين في السلف

الصالح، لذلك أشاع الناس أن السلفيين يحرِّمون كل ما هو مستحدث وقادم من الغرب الكافر.

وهنا تحضرنى دعابة قيلت فى هؤلاء الحمقى الذين لا يتورعون عن التحريم والتحليل دون رويَّه:

قيل إن رجلاً واعياً دعا مجموعة من هؤلاء المتحزلقين المتفيقهين إلى غداء فى بيته، وعندما لبَّوا الدعوة وصفَّ لهم الطعام على المائدة، اندهشوا لأن صديقهم يأكل على مائدة فأخذوها وقاموا بتحطيمها خارج البيت، عملاً بالحديث «من رأى منكم منكرًا فليغيرّه». فسألهم مضيفهم عما فعلوه، فقالوا بلا خجل:

- لم يأكل النبى ﷺ على مائدة من قبل، فخرج الرجل حانقًا وفى غيظ شديد ليرى حطام مائدته، فلمح دراجات تخصهم تستند إلى حائط بيته، فسكب عليها بنزينًا وأشعل فيها النار، فخرج الاخوان يهرولون ويتصايحون:

- يا أحمق ماذا تفعل؟!

فرد عليهم وابتسامته تعلو وجهه وقد بردت ناره:

النبى ﷺ لم يركب دراجة من قبل. انتهت.

وفى ظل هذا التخبط السائد التقف أفراد يتربصون بالإسلام

زلات وهنات تابعيه ليشهدوا العالم الخارجى على تخلفهم؛ فالتقطوا هذه الأمور الغريبة وأيضا المفتعلة بتحريض منهم؛ كما حدث بعد حادث مركز التجارة العالمى بأمريكا، وقد شاهد العالم لقطة لأطفال من العرب يرقصون ويهللون على إيقاع الانهيار والصراخ؛ ليثبتوا للعالم عدوانية وبربرية هذه الشعوب الهمجية التى لا تستحق الرحمة، وليبرروا أفعالهم الشائنة، وبثوها عبر إعلامهم، وهى النقطة التى توقفنا عندها آنفًا وأرجأناها لنوضح مدى تأثير الاعلام الصهيونى على المجتمع الدولى.

ولابد أن نلقى الضوء أولاً على الحركة الصهيونية: الصهيونية حركة عنصرية أخطبوطية تتشكل على حسب ظروفها ووقتها، وتستتر وراء الدين اليهودى لتستحوذ على مقاليد العالم، وذلك بخطط محكمة التنفيذ، وعلى مراحل زمنية متفاوتة، فى استمرارية ومثابرة تدعو للعجب.

وإذا تساءلنا: لماذا اليهودية بالذات اتخذتها ساترا لعنصريتها، فلماذا لا تستخدم مثلاً المسيحية أو البوذيه أو الكونفشيوسيه.. لماذا اليهودية بعينها؟ نقول.

- لأن اليهودية دين منزل من قبل الله باعتراف الدينين السماويين الآخرين، لذا فإن ثمة تعاطف مع معتنقيه، ولاسيما

بعد رواج ما يسمى بمعاناة الاضطهـاد، وتشرذمهم فى بقاع العالم دون وطن يحتويهم.

- ولأن هناك أرضا مـوعودة تنتظرهم تملأ صفحـات التلمود، ولا ينقص اليهـود سوى المحرك، ووجدت الصـهيونية فى نفـسها المحرك.

- ولأن هناك نخبة من أثرياء الـعالم اليهود لا يستـهان بثقلهم الاقتصادى وما لهم من تأثير عـلى اقتصاديات الدول، وفى سبيل وضع حدٍ لمآسى اليـهود لن يألوا جهدًا بقـرص آذان الحكومات أو يضنوا عليهم بالمال.

- ولأن هناك زعـماء يـهود وأصـحـاب سلطات فى بلاد الله الواسعة، القوية النفوذ ستساندهم وتدفعهم دومًا للأمام.

- ولأن فى التلمود تعاليم كثيرة تتماثل وبرتوكولات الصهيونية من انتهازية وعنصرية فتاكة.

وبذلك جمـيعًا شـرعت الصهيـونية تشق طريقهـا؛ فأحكمت السـيطرة على اقتـصاد الدول، وبـالتالى فـرضت عليهـا آراءها، فـأضحـت كالشـوكـة تقضُ مـضـاجعـهـا، وهكذا خنعت لهـا الحكومات.

ورفعت الصهيونية المنحطّين فكرياً إلى مصاف المفكرين العظماء، ودهست بنفوذها وجاهها كل من يعترضها ويستبين حقيقتها.

ولم تكتف المنظمة الصهيونية بذلك، بل سيطرت على آلة الإعلام بأنواعه المختلفة: من صحف وإذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح، عندما استشعرت بحاسّتها المدهشة أن ثمة عصر قادم يصبح فيه الإعلام كل شيء وفوق كل شيء، فهو تعبئة العالم الخارجي والداخلي، وهو ترسانة السلاح في الحرب النفسية التي قد تكون أشد من النزال ضراوة.

فبالإعلام جعلوا من فكرة عابرة قضيةً ترهف لها الآذان، وتدمع لها الأعين، وتوجل لها قلوب العالم، مع أن هناك شعوبًا في العالم سُحقت ظلمًا ولاتزال غائبةً عن أعين الضمير الإنساني والمجتمع الدولي. كالهنود الحمر مثلاً، الذين ظلوا يبادون على مدى مئات السنين مع طمس تاريخهم ومعالمهم وآثارهم وتذويبهم داخل المجتمعات الأمريكية - الكوكتيل - وتصويرهم في هوليوود لا كأصحاب أرض يدافعون عنها؛ بل كالرعاع القساة، وأنهم لا يعيشون إلا على النهب والسلب، أما البيض أصحاب البرانيط فهم أصحاب القلوب الرحيمة الذين يدافعون عن أنفسهم. لِمَ

ذلك؟ لم طوى النسيان قضية الهنود؟ أقول وبثقة لفقدانهم آلة الاعلام.

ترى اختلالاً غريبًا وتكذيبًا وقحًا للواقع ولحقائق التاريخ، ولكن صدّق العالم وآمن بما يمليه عليه الإعلام الصهيوني.

أما بالنسبة للعرب فكان تخطيط الصهيونية الاعلامى كالآتى(*).

(١) عملية تشوية إزاء العرب

(٢) عملية اجتذاب صديق أو مؤيد أو على الأقل محايد.

(٣) عملية متابعة لتحليل ومواجهة رد الفعل.

وقدّمت الصهيونية نفسها للعالم على الأسس الآتية:

(١) إسرائيل حقيقة دولة قائمة ولها حق البناء.

(٢) إسرائيل ترتبط حضارياً بالوجود الغربى.

(٣) إسرائيل تعبر عن العقائد السياسية المعاصرة.

(٤) إسرائيل تؤمن بمبدأ العالمية.

(٥) إسرائيل دولة عصرية تمثّل أقصى مراحل التقدم.

(*) الدكتور محمود دياب - إسرائيل بين البداية والنهاية

(٦) إسرائيل تنتمى إلى منطقة الشرق الأوسط جغرافياً وتاريخياً وحضارياً.

(٧) منطقة الشرق الأوسط لا يوجد بها سوى جماعات وعقائد تعبر عن أقصى مظاهر التخلف الحضارى والنظامى والثقافى».

وهكذا كان للإعلام الصهيونى دور رهيب فى تطوير الفكرة الصهيونية، والتأثير على المجتمع الغربى من خلاله، ومن ثم انحيازه الأعمى إليها.

وبذلك أضحى الإعلام العالمى بوقًا يردد تعاليمهم وأفكارهم، فوصفوا الإسلام بأساطير مغرقة فى الخيال والضلال، حتى ترسخت فى العقلية الغربية بأنه دين عدوانى ذو نزعة دموية، وما تزال حتى يومنا هذا تدرَّس للأطفال فى المدارس الغربية معلومات خاطئة عن الإسلام والمسلمين، وكذلك شاشاتهم السينمائية تفجعنا بين الحين والآخر بتصوير شخصية عربية أو إسلامية وهى فى حضيض التخلف والهمجية، ووصمها بالإرهاب والتشدد الدينى اللامعقول وعشق الدماء واغتصاب النساء، ولا همَّ لها سوى الجنس، وكذا تصوير حال المرأة فى المجتمعات الإسلامية كأمة لا دور لها فى الحياة سوى قضاء الحاجات الشهوانية، نقل حرفى من كتب الشرق وأساطيره كألف ليلة وليلة وحشرها وعرضها على الساحة الإعلامية كأنه واقع ملموس

وكمـا يقول المثل العامىّ عندنا: (الزن على الودان أقـوى من السحر) فقد سحر الصـهيانة الألباب لكثرة ما يروجونه من تضليل تاريخى وخلط للعـقيـدة بالجنس، لدرجـة أن هناك ساسـة ذائعى الصيت والشـهرة ومثـقفين وعلماء ومـن جميع الطبـقات يؤمنون بالتفـسير الصـهيونى السـياسى - المحـاط بغلاف دينى - لعقـيدة هرمجدون، والادعـاء باحتلال فلسطين وإبادة شعبـها لكى يمهدوا الأرض - والقدس بالذات - لعودة السيد المسيح.

انقياد للصهـيونية غريب مثير للدهشـة، فلا يرى العالم إلا ما ترى الصهيـونية، ولا يسمع إلا ما تسمـع، فهى نظرُه وأذنه وأنفه وكل شىء. وبالطبع فى هذه الحـالة كل تفجـير يحـدث أو عمل إرهابى فى العـالم أول مـا تشـيـر الأصـابع تشـيـر إلى المسلمين والعرب، ويعـود هذا إلى هيمنة الصهـيونية على وسـائل الإعلام العـالمية، وكـذلك إجادتهم فـن العبث فى رواكـد المياه القـذرة، وصبغ الأحداث بالألوان التى تراها مناسبة. ولهذا نلمس حملات العداء الغربية ضدنا، فهم اعتبروا الإسلام العدو الحالى بعد انهيار الشيـوعية - تطبـيقًا لنظرية هنتـجنتون - وما حـدث فى البوسنة والهرسك والشيشان وفلسطين يرفع النقاب عن مدى بغضهم لنا، فهـا هم الصرب يعلنون لأوروبا أنهـم فى مهمـة تاريخيـة لإنقاذ

أوروبا من المد الإسلامى الأخطر - ومـن بعدهم بوش الابن يردد بعنجـهيـة (الصليـبيـة الجديدة)، ومن بـعده رئيس وزراء إيطاليـا بيرلسكونى - وبذلك اكـتفت أوروبا بالتنديد والشجب لأكـثر من عامين حتى ينتهى الصرب من مهمتهم التاريخية.

إذن هذا التعصب الغربى والكره للإسلام وتابعيه يعبِّر عن مدى سـوء الفـهم والخلط الذى أحـدثه الكتّاب المـأجورون والإعـلام الصهيونى.

ولكن اللائمة تقع فى النهـاية علينا نحن كمسلمين وكـعرب، فقد اكـتفينا بدفن الرؤوس فى الرمال وظللنا فى سبـات عميق لا نحـرك ساكنًا، وكـأننا ننتظر هبـوط ملائكة من السـماء تصـحّح أوضاعًا سلبية كُنَّا سببًا فى إيجادها على الساحة.

وهكذا تركنا للصهيونية الساحـة خالية إلا من نفسها تعيث فى الأرض فسادًا وتعبث بالعقول.

وبهذا التقصير المزرى منّا والتضـليل الصهيونى، شحبت صورة الإسلام الحقيقية، وبهت بياضها الناصع فى أعين العالم.

ولذلك أتجـرأ وأقدِّم هذه المحـاولة المتواضـعة بين أيدى القـراء لتكون خطوة لفـهم تعـاليم الإسلام. وقـد يلاحظ القـارئ أننى

أكثـرت من سرد الآيات القـرآنية والأحـاديث النبوية فى فـصول الكتاب وذلك لأنهـا نبع دستور المسلم ونبراســه الذى يهتدى به، ومن ثم ليظهـر جنـوح بعض المنتـسـبين إلى الإسـلام، وأنهم لا يَمُتُّون إلى حقيقـة تعاليم ديننا بصلة، وأخيراً لنطرح السؤال هذا ديننا فماذا رأيتم فى تعاليمه؟

والله أسأل أن ينفعنا به فى الدنيا والآخرة

م. ن. ا

ربيع الأول ١٤٢٣ هـ

مدينة العاشر من رمضان

النبى والرسالة

محمد رسول الله

كان مجتمع العرب الجاهلى قبل الإسـلام يزهو ويفخر بالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد وعزة النفس، وكانت تلوح فيهم الفطرة البـدوية؛ إذ إنهم لم يتلوثوا بمكائـد وسقطات الحـضـارة، لذلك وضح فيهم الصدق والأمانة والنفور من الخداع والغدر وغير ذلك من الأخلاق الحميدة.

بيد أنه قد شاع فى أوساط كثيرة بينهم اختلاط الرّجال بالنساء دون تحـفظ، ولا يعـبر عـن هذا الشـيوع إلا بالدعـارة والمجـون والسفاح. إذن كان هناك خللاً اجتـماعياً حتى أنه روى أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء(*): نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فـيُصدقها ثم ينـكحها، ونكاح أن الرجل يقول لامرأته إذا طهـرت من طمثها: اذهبِى إلى فلان فاسـتبضعى منه. ويعتزلها زوجها ولا يَمَسُّـها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى أرسلت إليه لتستبضع منه، وكانوا يفعلون ذلك رغبةً

(*) الرحيق المختوم.

فى نجابة الولد، ويسمى نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر؛ أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: «قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدتُ وهو ابنك يا فلان» فتسمى من أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها. ونكاح آخر: أن يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة التى لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن رايات على أبوابهن تكن علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافه ثم يُلْحِقوا ولدها بالذى يرون، ولا يمتنع من ذلك».

فقد كانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط، فكانت الأغلبية الساحقة لا تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة.

وكانوا يئدون البنات خشية العار والانفاق، ويقتلون الأولاد خشية الفقر والإملاق.

وكان الجهل يضرب جذوره فيهم، كما أن الخرافات بلغت شأوًا خطيرًا، فيستقسمون بالأزلام، ويزجرون الطيور حين إقدامهم

على أمر لا يعرفـون خيره من شره، والمرأة تبـاع وتُشترى وتورث كالمتاع والبهائم أحيانًا.

وكانوا يسرفون فـى شرب الخمر ويمتدحون شربهـا، ويمنحونها بسخاء لضيوفهم؛ لأنها فى اعـتقادهم إحدى سبل الكرم، وكانوا يشتـغلون بالميسـر، وما ربحـوه ينفقـوه على المساكين!، وكـثرت المعـبـــودات: هذا وثن من نحـاس، وهـذا من ذهب، وذاك من حجر، وآخر من طين، حـتى وصلت أعدادها فى فتح مكة حول البيت إلى ثلاثمائة وستين صنمًا، وتعددت أسماء آلهتهم؛ فهبل، ومناة، واللات، والعزى، وغيرها.

وبين هذا الضجيج الأخلاقى والعقائدى وُلد محمد ﷺ وشب بين قومه، وكان بينـهـم كالغريب، كثير الصمت وبـه استعان على طول التـأمل وإدمـان الفـكر واسـتبيـان الحقـيـقة، فطالع بعـقله الخصب شئونَ الناس وأحـوال الجماعات، فعافت نفـسُه الخرافات ونأى بنفسه عـنها، وعايشَ الناسَ على بصيـرةٍ من أمره وأمرهم، فمـا وجدَ حَسنًا شاركـهم فيه، وإلا عـاد إلى عزلته المحببه إلى نفسه، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النُّصب، ولا يحضـر للأوثـان عـيـدًا ولا احـتفالاً. فكان من بداية نشـأته نافرًا مـن هذه المعـبودات، حتى لم يكـن ثمة شىء أبغض إليـه منها،

حتى أنه لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى.

ولا شك أن القَدَرَ أحاطه بالحفظ؛ فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا واتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الإلهية للحيلولة بينه وبين هوى النفس. وروى عنه أنه قال ﷺ[1]: ما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غيرَ مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبينه، ثم ما هَمَمْتُ به حتى أكرمنى برسالته، قلت ليلةً للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمرَ بها كما يسمر الشباب. فقال: أفعل. فخرجت حتى إذا كنت عند أول دارٍ بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلانٍ بفلانه، فجلست أسمع، فضرب الله على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا حر الشمس. فعدتُ إلى صاحبى، فسألنى، فأخبرته، ثم قلت ليلةً أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة، ثم ما هممتُ بسوء».

وكان النبى ﷺ يمتاز بين قومه بخِلال[2]؛ فكان أفضلهم مروءةً، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حِلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأوفاهم عهدًا، وآمنهم أمانة، فسمّاه قومه

(١، ٢) الرحيق المختوم.

الأمين لِما رأوه فيه من الصلاح والخصال الطيبة.

وعندما قاربَ سنُّه الأربعين اتَّسَعت الشقةُ بينه وبين قومه؛ إذ إنه فى هذا العمر يكون الشخص فى أوج نضوجه العقلى والفكرى، كما أن العزلة التى كان قد فرضها على نفسه أنارت له كثيرًا من السبل التى كان يخطو عليها قومه فى جهالة.

فكان يذهب إلى غار حراء فى جبل النور يعتزل الناس بعيدًا عنهم على نحو ميلين، ويقضى وقته فى التأمل والتدبر، فتتعلق عيناه بالنجوم والقمر والجبال والدواب والهوام والبشر ويتدبر ويتساءل غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، ويتعذب؛ فليس ثمة طريق واضح ولا منهج مجدد ولا قصد يطمئن إليه ويرضاه، وظلَّ هكذا إلى أن حُمِّل بالرسالة، فانقشعت له الظلمة وأبانت الصراط المستقيم.

وكان منذ صباه - حتى هبوط الوحى - شديد التمسك بالأخلاق القويمة، وبلغت ذروتها بعد تحميله الرسالة، فكان يدعو الناس ويقول(*): «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وقيل له وهو فى إحدى المواقع: لو لعنتَهم يا رسول الله، فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث لَعَّانًا. وفى غزوة أحد عندما كسرت رباعيته وشُجَّ رأسه

(*) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٩٤

وكلمتْ شفته السفلى جعل يمسح الدم بيده عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

وكان إذا سُئل أن يدعو على أحد - مسلم أو كافر عام أو خاص - عدلَ عن الدعاء عليه إلى الدعاء له، وما انتقم من شىء صنع له قط إلا أن تُنتهك حرمة الله، وما كان يأتيه أحد حُرٌّ أو عبدٌ أو أمة إلا قام معه فى حاجته، وما قال لخادمه «أُف» أو «لِمَ فعلت هذا؟» قط.

وكان من خُلقه يبدأ من لقيه بالسلام، وإذا لقى الرجلَ يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف، وكان إذا استقبل الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لَقِيَ أحدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شدَّ قبضته عليها.

وكان النبى ﷺ لا يُعرف مجلسه من مجلس أصحابه؛ لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس، وما رئى قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيِّق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعًا، وكان يكرم مَن يدخل عليه حتى ربما بسطَ له ثوبه ليجلس عليه، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه،

فيعطي كلٌ من جلس إليه نصيبه من وجهه وسمعه وحديثه، فهكذا كان مجلسه حياء وتواضعًا.

ومن خُلقه أيضًا أنه كان أوجز الناس كلامًا، نَزِر الكلام، طويل السكون، لا يتكلم فى غير حاجة، ولا يقول إلا حقاً، ويعرض عمن تكلم بغير جميل، ويُكنِّى عما اضطره الكلام إليه مما يكره، وكان أكثر الناس تبسمًا وضحكًا فى وجوه أصحابه وتعجبًا مما تحدّثوا به وخلطًا لنفسه بهم.

وكان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة، فهذا رجل من أهل البادية جاف الطبع لم يقتنع بعدل النبى ﷺ فقال له: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدلَ، فما أراك تعدل. وآخر يقول: يا رسول الله اعدل. فما قابل فظاظتهما إلا بلين. ورجلٌ آخر قام على رأسه بالسيف ويقول له: من يمنعك منى؟ فقال النبى: الله، فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبى وقال له: من يمنعك منى؟ فقال الرجل مستسلمًا: كن خيرَ آخذ. ولم يرض النبى قتله فخلَّى سبيلَه بعد نصحه.

وهذه يهودية أتته بشاة مسمومة وعفا عنها. وذات يوم بينما يقسم قسمة قال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله. فحزن النبى واحمرَّ وجهه وقال: رحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر

من هذا فصبر وكان يقول حباً فى أصحابه. لا يُبلغنى أحد منكم عن أحدٍ من أصحابى شيئًا؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر

وكان أيضًا أشد الناس تواضعًا؛ فكان يخصف نعله ويرقع ثوبه وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم، وكان يعود المريض، ويجيب دعوة المملوك. وكان يكره أن يقوم الصحابة عند مقدمه، وكان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم كما لو كانوا كبارًا، وكان بين أصحابه مختلطًا فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو.

وقالت له زوجه عائشة يومًا: كُلْ - جعلنى الله فداك - متكئًا فإنه أهون عليك. فأصغى النبى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال: بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد.

وكان لا يدعوه أحد إلا قال. لبيك، وكان إذا جلس مع الناس وتكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدَّث معهم رفقًا بهم وتواضعًا لهم.

ووقف بين يديه رجل يرتعد من هيبته، فقال له: هَوِّن عليك فلست بملك؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

وكـان من دعائه: «اللهم حَسِّن خَلقى وخُلُقى» ومن دعـائه: «اللهم جنِّبنى منـكَرات الأخلاق». فكانت الآيات الـقرآنيـة تتنزل عليـه لتزيده علمًـا وخلقًا، فـيقول الله تـعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وغيرها من الآيات التى تحثُّه على ملازمة حسن الخلق.

فهكذا كان نبـينا فى أخلاقه نبراسًـا يضىء، ويعلِّم الأمة آداب السـلوك أو الـ: Etiquette كـما يقـول الغـربيـون، ولكنه ليس كإتيكيتهم، بل هو تهذيب لا تتدخل فيه نظريات قرائح البشر التى لا تلبث إلا حينًا ثم يبدو ترهلها وعـدم صمودها فى وجه الزمان وتقلباته.

وما أوردناه من خُلُق رسولنا غيضٌ من فيـضه، ومهما أُتينا من جوامع الكلم لن نصفه كما وصـفه من أدَّبه وأحسن تأديبه؛ حيث قال ربنا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

وحثنا الله بعد ذلك لنأتسى به إذ قال ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

إسلامى معناه

الإسلام هو كما قال الراغب الأصفهانى: «استسلام لله فى جميع ما قضى وقدَّر وأن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب»[١].

ويقول ابن الأنبارى فى المعنى اللغوى للكلمة:

المسلم: معناه: المخلص لله فى عبادته، من قولهم سَلِمَ الشيء لفلان. خَلُص له؛ فالإسلام معناه: إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى»[٢] وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة أو إلى المعنى اللغوى، فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير إلى:

- شخص معين كما تشير البوذية مثلاً إلى بوذا، والزرادتشية إلى زرادتش

- ولا إلى شعبٍ معيَّن كما تشير اليهودية إلى شعب بذاته.

- ولا إلى إقليم أو بلدٍ معين كما تُشير النصرانية.

والدين الذى ينتسب أو يشير إلى شخص معين أو شعب معين أو إقليم معين يتحدد زمنه - ضرورةً - بابتداء الشخص أو

---

(١) منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمع د. عبد الحليم محمود.

(٢) نفس المصدر السابق

الشعب، ويتحدد بالمكان، ولـكن كلمة الإسلام لا تدل على زمان ولا مكان؛ فـهي لا تشيـر إلى زمن يَحُدُّها ولا إلى مكان تـتقـيد به»(*).

فمن قبل قال سـيدنا نوح لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْمُـسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وقـال الله عن سـيـدنا إبراهيم: ﴿مَـا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُـودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[آل عمران: ٦٧].

وحينما كان سـيدنا إبراهيم وإسماعيل يرفعـان قواعد بيت الله الحرام أخذا يدعوان الله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّـسْلِمَـةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّـوَّابُ الرَّحِـيمُ﴾

[البقرة: ١٢٨].

ووصَّى سيدُنا إبراهيم وإسـحاقُ بَنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْـقُـوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَـلا تَمُـوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

(*) نفس المصدر السابق.

وعندما حضر سيدنا يعقوبَ الموتُ قال لبنيه مستفسرًا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال سيدنا موسى لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

ويدعو سيدنا يوسف ربَّه قائلاً: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال حواريُّو سيدنا عيسى: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وعندما أحسَّ سيدنا عيسى من قومه الكفر؛ سألهم: (من أنصاري إلى الله) قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وهكذا لم تكن رسالة الإسلام يختص بها جيل من الناس دون جيل، أو شعب من الشعوب، شأن الرسالات التى سبقتها، بل هى رسالة عامة لكافة الناس فى كل الأمكنة والأزمنة.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ونظرًا لذلك جاء الإسلام بتعاليم ثابتة لا تتبدَّل مع تبدُّل الزمان والمكان. ليس لها عمر افتراضى، ولا تبْلَ مهما طال الزمان، ولا تتهلهل؛ لإنها شريعةٌ أحكمَها اللهُ الذى هو أدرى بتسيير صنعه.

وكل ما جاء فيها يُقصد به حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

وغاية الدين الإسلامى تزكيةُ النفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله، وعبادته، وتدعيم الروابط الإنسانية، وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل؛ ليسعد الإنسان فى دنياه وآخرته. وإذا نظرنا إلى تشريعاته لا نجد فيها ما يصعب على الناس اعتقادُه؛ لأنَّ الله لا يريد بنا العسر؛ فكل ما فيه يناسب الفطرة ويساير العقل، فعندما يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهل فى هذا الكلام من شىء غيرُ سَوِىٍّ؟! فإنه ينهى عن الفاحشة والإثم والبغى والإشراك بالله، وجعلِ له نداً، والتقول على الله بلا علم. فهذا ما ينادى به المصلحون والعقلاء ويدعون

الناس إليـه؛ لينتهـوا بهم إلى حيـاة كريمة تصلُهم بأعلـى درجات الرقى والكمال.

وقد جاء رجلٌ إلى النبى يسأله عن الإسلام، فقال له النبى «أنْ يسلَمَ لله قلبك، وأن يَسْلَمَ المسلمون من لسانك ويدك».

وإذا تأملنا أركـان الإسلام الخـمسـة التى هى البنيـة التحـتيـة للإسلام، وهى الأصول والأساس الذى يشـيد على قاعدته صرحُ الإسلام الشـامخ فتبدأ أولاً: بشـهادة **«أن لا إلـه إلاَّ اللـه»**: وتعنى الإيمان المطلق بوحدانيته وألوهيته، وانفراده على الملكوت وما دونه مخلوق.

وشهـادة **أنَّ محـمـداً رسـول الله**: إيمان وتصديق بـه وبالرسالة التى جاء بهـا، ومن ثَمَّ اتباع مـا جاء به والإعـراض عن ما نهى عنه.

ثانياً: إقـامة الصلاة: بدايتهـا: تكبيـر وتعظيم وتوحيـد لله، ثم خضـوع وتذلل ودعاء، وقـد تفرقت الخمس صـلوات على مدار اليوم كله؛ ليكون العبد فى عبادة متصلة، وفى هذه الحالة سيكون مستديم النظر فى أعماله، فالحـساب والعقاب دائمًا نُصْبُ عينيه، فلا يظلم أحدًا ولا يعتدى على حقـوق أحد، وهى فرصةٌ لمراجعة النفس فى لحظات الصفاء. وتُتَوَّج الصلاة بختامها بالسلام، فأنت

تلقى السلام والمحبة والأمان على يمينك تارة وعلى يسارك تارة أخرى.

ثالثًا: الزكاة: هى تطهير النفس من الجشع، وترويضها؛ لتعتاد على بذل المال طواعيةً لمرضاة الله، وهى تخفيف لآلام الفقراء، وهى رحمة، وهى نزع فتيل الحقد وغضب المطحونين، وهى الرحمة بين الناس وتكافلهم.

رابعًا: الصوم: هو التَّنَزُّهُ عن الصفات الإنسانية الشهوانية، والتخلُّق بالصفات الملائكية المتعبّدة دون كلل، والزهد عن متع الدنيا؛ فلا طعام، ولا شراب، ولا جماع، وهى نشدان الكمال، وكذلك استشعارٌ لما يكابده الفقراء من الفاقة.

خامسًا: الحج: تهذيب بأنَّ الناس سواسيةٌ كأسنان المشط؛ فكلهم بجليلهم وفقيرهم تجردوا من الملابس إلاَّ ما يستر عوراتهم، جميعهم يقفون جنب إلى جنب؛ الخفير بجانب الوزير بجانب الرئيس لا تفريق بينهم وكلهم عباد لله، وكلهم بُحَّتْ أصواتهم من التهليل والتمجيد، وكأنهم فى أرض المحشر ينتظرون القول الفصل من بارئهم، وهو فرصة للمتكبرين ليروا حقيقة أنفسهم بين هذه الجموع الهادرة، وفرصة لإعادة الحسابات وترتيبها من جديد والصلح مع الله.

وبالتالى فإن جـميع الأركان نجدها تحثُّ الإنسـانَ على التفكير فى اليوم الآخـر وما فيـه من حساب، ومن ثَمَّ تَحُثُّ العـبدَ على النأى بنفسه عن الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين.

ويتبين لنا مما تقـدم أن الله ما أمر وما نهى إلاَّ لصـلاح البشرية والرقى بها بعيدًا عن حياة الغابة.

لذا يقول تـعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

٥

إسلام رحمةٌ وسلام

رحمةٌ

تقـــول الآية الـكريمةُ ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْـمَـةً لِّلْعَـالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

رحــمــةٌ للعــالمين؛ أي جــمــيع المخلوقــات، بإنســهم وجنِّهم وبهائمهم، فــقد سَبق الإسلامُ بمئات السنين دعاةَ حـقوق الإنسان والحـيوان والرفق بهــمــا؛ فكان النبى ﷺ يقــول: «مَنْ لا يرحَمِ الناسَ لا يرحــمْــه الله». ويقــول: «لن تؤمنوا حــتى تَراحَــمــوا» ويقول: «الراحــمون يرحمُــهم الرحمن، ارحــموا من فى الأرض يرحَمْكُم مَن فى السماء».

وكان ينهَى أصــحابه عن تعــذيب الحيوان، فــها هو ذا ينذرهم فيــقول: «دخلت امرأةٌ النارَ فى هرَّة ربطتــها، فلم تطعمــها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وها هو ذات يوم يمر على بســتان رجل فدخله فــإذا جملٌ يئن وتذرف عيناه، فأتاه النبى فمسح عليه حتى سكت الجمل ثم قال:

مَنْ رَبُّ هذا الجمل؟ فجاء رجل فقال: هذا لى يا رسول الله، فقال له: ألا تتَّقِى اللهَ فى هذه البهيمة التى ملَّكَكَ الله! إنك تُجِيعُه وتُدْئِبُه».

ويقول أيضًا: «اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحةً وكُلوها صالحة». وكان يَحُثُّ أصحابَه على رحمة الحيوان فيقول: «دنا رجل إلى بئر فنزل فشرب منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه فنزع إحدى خُفَّيْهِ فسقاه، فشكر الله له؛ فأدخله الجنة».

وسألوه: وإنَّ لنا فى البهائم أجراً؟

قال لهم: فى كل كبد رطبة أجر.

وفى الصيد؛ فقد نهى النبى ﷺ عن صيد الحيوان إلاَّ لمأكله؛ فيقول: «من قتل عصفوراً عبثًا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانًا قتلنى عبثًا ولم يقتلنى منفعةً».

وذات يوم مرَّ على بعض الناس وقد اتخذوا طائرا هدفًا يصوبون إليه ضرباتهم فقال: «لعنَ اللهُ مَن فعل هذا».

وقال أيضًا: «لا تتخذوا شيئًا فيه الرُّوحُ غرضًا؛ أى هدفًا».

حتى فى قتلنا مثلاً كلبًا مسعوراً يهدد أمن الناس ويروِّعهم ويعتدى عليهم، أُمرنا بقتله ولكن بالإحسان، بمعنى لا نقتله بأداة

تطيل زهوق روحه تعذبه وتَزيدُ آلامه، وكذلك الذبح مع أنَّه حلال، ولكن ثمة إرشادات تُتَّبع لذبح البهائم منها مثلاً: ألاَّ يكون الذبح بآلة كالَّة، وأن تُحَدَّ الشفار بعيدًا عن أعين البهائم، وألاَّ نسلخ البهيمة إلاَّ بعد زهوق الروح. ولذلك يقول النبى ﷺ: «إذا قتلتم فأحْسِنوا القِتْلَةَ وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذِّبْحَةَ».

وكما أن هناك إحسانًا فى القتل، وإحسانًا فى الذبح، فثمة إحسان فى الصيد، ووضع لها شروط منها كما سبق أنْ قلنا: لا يقتل عبثًا، وأيضًا أن يَخْرِق السلاح جسم الصيد وينفذ فيه، ونهى النبى عن الصيد بالحصاة؛ لأنها كما قال: لا تصيد صيدًا ولكن تكسر وتفقأ.

وما نراه الآن فى حلبات مصارعة الثيران لا يقرُّه الدين الإسلامى؛ إذ لا رحمة فى هذا الفعل ولا حس ولا شعور للقائم به؛ لما يكابده هذا الحيوان. وهذا هو القتل صَبْرًا الذى نهى عنه النبى ﷺ. وكذلك نهى عن التحريش بين البهائم، وحرَّم إيذاءَ الحيوان وتحميلَه فوق طاقته، فإنْ حمَّله إنسانٌ ما يعجز عنه كان للحاكم أن يمنعه من حمل ما لا يطيق، وإذا كان الحيوان حلوبًا وله ولد فلا يجوز الأخذ من اللبن إلاَّ بالقدر الذى لا يضر ولده.

ويقول لهم النبى ﷺ: «مَن لا يرحم مَن فى الأرض لا يرحمه مَن فى السماء».

ويقول: «لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقى».

ويقـول: «إن اللهَ عَـزَّ وجَلَّ يقول يـوم القيـامـة: يا بن آدم، مرضتُ فلم تَعُـدْنى. فيقول ابن آدم: يا رب كـيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول ربُّ العزة: أمـا علمتَ أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْهُ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟!

يا بن آدم: استطعمتك فلم تطعمنى!

فيقول ابن آدم: يا رب كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين؟

فيقـول ربُّ العزة: أما علمتَ أنه استطعمك عـبدى فلان فلم تطعمه؟!

أما علمت أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندى؟!

يا بن آدم: استسقيتُك فلم تسقنى!

فيقول ابن آدم: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

فيقول رب العزة: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه

أما علمت أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندى؟!»

وقدم عليه ﷺ أناسٌ من الأعـراب فقالوا: أُتقبِّلون صِـبيانكم؟ فقـال لهم: نعم. قالوا: لكنَّا لا نُقبِّل. فـقال النبى: أَوَ أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة.

وكان يقول لأصحابه: «إذا صلّى أحدكم بالناس فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء».

ويقول: «إني لأدخلُ في الصلاة فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز مِمّا أعلمه من شدة وَجْد أمه من بكائه».

وتتجلى روعة الرحمةِ في الإسلام في قصة غزوة مؤتة؛ فقد بعث النبي الصحابي الحارث بن عمير بكتاب إلى عظيم بُصْرَى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً من قِبَل قيصر على البلقاء من أرض الشام - فأوثقه رباطًا ثم قدمه فضرب عنقه، وكان هذا الفعل بمثابة إعلان حرب في وقتنا هذا، فاشتد على النبي ﷺ حين نقلت إليه الأخبارُ بمقتل رسوله، فجهَّز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّرَ عليه زيد بن حارثة وأوصاهم بوصية ما أحوجَ العالَمَ المتحضر إليها الآن:

«لا تغدروا، ولا تُغيروا، ولا تَقتلوا وليدًا ولا امرأةً ولا كبيرًا فانيًا ولا منعزلاً بصومعةٍ، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناءً».

هذا ديننا لا يحتاج إلى توضيح أو تنميق في الكلام، فهو صريح وتشع الرحمة متوهجةً في كل كلمةٍ يتلفظها نبينا محمد بن عبد الله.

وتتمثل الرحمة أيضًا بعد فتح مكة فى أهل قريش الذين طالما ناصبوه العداوة والذين سخروا منه وآذوه وعذبوه ورموه بالكذب والجنون والسحر، وقتلوا أصحابه وأذاقوهم صنوفَ العذاب، والذين قاطعوه ومنعوا عنه أصحابه وعشيرته الطعام ثلاثة أعوام كاملة حتى إنهم لجئوا إلى أكل الأوراق والجلود.

أهلُ قريش الذين اضطروه إلى مغادرة بلده فاراً بدينه، وطاردوه ووضعوا مكافأة مائة ناقة لمن يجىء به حيّاً أو ميتًا. أهل قريش الذين استحلوا أموالَ المسلمين وديارهم بعد فرارهم إلى المدينة المنورة. أهل قريش الذين جيَّشوا الجيوش وعَبَّئوا القبائل ضده. أهل قريش الذين بقروا بطون شهداء المسلمين فى غزوة أحد ومثَّلوا بجثثهم، ونسائهم اللائى جَدَعْنَ أنوفهم، وقرضن آذانهم، واتخذن منها خلاخيل وقلائد نكايةً فى المسلمين.

وبعد كل هذه المعاناة من أهل قريش؛ قال لهم عندما مكَّنه الله منهم: ماذا ترون أنى فاعل بكم؟ ثم تجلت رحمته حيث قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ومن أقواله:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربةً فرج الله عنه

بها كــربةً مِن كُرب يوم القيــامةِ ومن ستــر مسلمًا ســتره الله يوم القيامةِ».

وكان يقول حاثًا أمته على الإحسان إلى الأيتام:

«أنا وكافل اليــتيم فى الجنةِ كهاتين؛ وأشــار بأصبعيه: الـسبَّابة والوسطى، ثم فرَّج بينهما».

ويقول: «مَن مسح على رأس يتيم له لا يمسحه إلا لله كانت له فى كل شعرةٍ مرت عليها يَدُه حسناتٌ».

ويقول: «خـيرُ بيتٍ فى المســلمين بيتٌ فيــه يَتيمٌ يُحْسَــنُ إليه، وشرُّ بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساءُ إليه».

ويقول: «من دعــا يتيمًــا من بين المسلمين إلى طعامِــهِ وشرابه أدخله الله الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنبًا لا يُغفر له».

ويقول: «والذى بعثنى بالحق لا يعذب اللهُ يوم القيامة من رحمَ اليتيمَ ولانَ له فى الكلام، ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله».

وكان الـنبى ﷺ يحث صحــابتَه على التـصدُّق والإنفــاق من أموالهم بالقليل أو الكثير؛ ترويضًا للنفــس على السخاء. فيقول: «مَن تصدَّق بعِدْل تمرةٍ من كسبٍ طيبٍ - ولا يقبل الله إلا طيبًا -

فإن الله يقبلها بيمينه ثم يُرْبيها لصاحبها كما يُرْبِى أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتصير مثل جبل أُحُدٍ».

ويقول: «ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل»(*).

ويقول مبينًا فضل إخفاء الصدقة: «سبعة يُظلُّهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. - رجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وسُئل ﷺ: أىُّ الصدقة أفضل؟، قال: سراً إلى فقير، أو جهد مِن مُقِلٍّ».

ويقول فيمن يقضون حوائجَ الناس: «إنَّ لله خلقًا خلقَهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذِّبهم بالنار، فإذا كَان يوم القيامة وُضِعَتْ لهم مَنابرُ من نور».

ويقول: «مَن مَشَى فى حاجة أخيه المسلم كتب اللهُ له بكل خطوة سبعين حسنةً وكفَّر عنه سبعين سيئةً، فإن قُضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم وَلَدتْه أمه، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب».

وخيرُ ما نختم به حديثنا عن الرحمة ما بدأنا به وهى الآية الكريمة: ﴿وما أرسلْناك إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(*) مكاشفة القلوب: ص ٢٢٥.

سَلامٌ

السلام هو الأمان والاطمئنان، وسـكون النفس وراحتها، وهو نشـر الحب والعـدل على الناس فـى كل مكان؛ على اليـهـودى، والمسيـحى، والبوذى، والسيخـى، وعلى الأسود والأبيض تكريمًا لإنسانيته.

والسـلام هو البـاعث لحـب الحـيـاة والانطلاق فى أرض الله الواسعة لتكتسىَ بالعمران.

والسلام اسم من أسماء الله الدالة على عنايته وإحاطته الرءومة بعباده، فاشتق لنا اسم الإسلام من السلام.

ولا نقصد السلام الحالى «سلام الشـجعان» أو «سلام الحملان» أو «سلام الخذلان»، ولكن «سلام الإسلام» المنبثق من تعاليمه.

فها نحن عندمـا نتلاقَى نبادر قائلين: السـلام عليكم، وعندما نفترق نقول: السلام عليكم، بل ونزيد عليـها فنردفها بالدعاء أى بالرحمة والبركة: السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فنحن نبدأ بالسلام، تحيـتنا السلام؛ لأنه أمان، ولا كلام قـبل الأمان؛ لذلك يقول نبينا ﷺ: «السلام قبل الكلام».

ويقول أيضًا: «إنَّ اللهَ جعلَ السلامَ تحيةً لأمتنا وأمانًا لأهل ذِمَّتنا».

ولأنه أمانٌ يقول: «أفضلُ الأعمال بَذْلُ السَّلام للعالَم».

ولعظمة هذه الكلمة - السلام - فى الإسلام وما تحتويه من معان جَمَّة، فهى تحية الله للمؤمنين يوم يلقونه يوم القيامة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وهى تحيةُ الملائكة للمؤمنين فى الآخرة: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وهى اسم الجنة التى وُعِد المتقون: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وهى الأكثر شيوعًا على ألسنة أهل الجنة: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

ونجدها فى مواضع كثيرة فى القرآن: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾، ﴿سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾.

ومن أجل الحفاظ على السلام الذى ينطوى على معنى الرحمة والتسامح والعدل وصيانة حرية الإنسان وكرامته شُرع الجهاد أو التعبئة العامة لتكون هناك قوة لحماية أهدافه الرامية إلى إرساء

قواعد السلام فى العـالم، وبالتالى حماية المجتمعـات الإسلامية؛ فيقول ربنا: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال لنا ﴿ترهبون﴾ ولم يقل «تعتدون»، وفى كيـفية إعمال هذه القوة وعدم الشطط بها بيَّنَ قائلاً فى آيات عدة: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦]. ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١].

ويتضح مما سردناه فى الآيات السابقة أن الجهاد دفاع لا اعتداء، وليس كما شاعت ترجـمته فى اللغات الأجنبية حـرب مقدسة لا وجهة لها سوى التعصب الذميم وإشباع نزوات عدوانية.

وليست الرحمـة والتسامح والعدل وجمـيع الحقوق التى ينادى بها الإسلام للأفراد كـلمات مجوَّفة أو شعارات مـستهلكة، ولكن هى دعوة حـقيقيـة تهدف إلى التعـايش السلمى بين المجتمـعات بعضها ببعض، لذا نلتـمسها فى قوله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِين لم يُقَاتلوكُم في الدِّينِ ولَم يُخرِجُوكُم من دياركُم أن تبروهم وتُقْسطُوا إليْهِمْ إنَّ اللَّه يُحبُّ الْمُقْسطِين﴾ [الممتحنة ٨]. ﴿من قتل نفْسا بغَيْرِ نفْسٍ أو فسادٍ في الأَرْضِ فكَأَنَّما قتل النَّاس جميعا ومن أحياها فكَأَنَّما أَحْيا النَّاس جميعا﴾ [المائدة: ٣٢]. ﴿وتعاونُوا على الْبرِّ والتَّقْوىٰ ولا تعاونُوا على الإِثْمِ والْعُدْوانِ﴾ [المائدة: ٢].

ويقول موضحًا جزاء من يتخذ العنف والعدوان والقتل والتخريب طريقًا ومنهجًا: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

ويقول فى وصف النبى ﷺ: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ويقول عن نفسه ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق».

وهذا ما دعا إليه الإسلام: المسالمة والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، وتبادل المنافع مع الديانات الأخرى، وقد كفل لهم حريتهم الدينية وعدم إكراه أحد منهم على ترك دينه فيقول الله تعالى: ﴿لا إِكْراه في الدِّينِ قد تَّبَيَّن الرُّشْدُ من الْغيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول فى موضع آخر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول ﷺ: «اتركوهم وما يَدينون».

ونهانا الله تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى واللين والرفق بهم ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ويقول آمرًا عباده بالقسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ولِكُلٍّ ما تقدَّمَ يبدو الإسلامُ حريصًا على استقرار الإنسانية وسلامَتِها عن طريق وضع الأحكام والتشاريع، ولا يعتبر نفسه بمنأى عن العبث والقلاقِل وإهدارِ الكرامات لبنى البشر فى باقى المعمورة وتوضحيًا لذلك ضرب لنا النبى ﷺ مثلاً بليغًا حين قال: «مَثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استَهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نُؤْذِ من فَوْقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا

هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»

إذن الإنسانية بأكملها مسئولة عن أمنها واستقرارها ومن ثَم جاءت الشريعة الإسلامية لحماية حقوق الإنسان؛ فأكدت على حرمة النفس، ولحمايتها شُرِعَ القصاص، وحمايةً لحق ممتلكات الآخرين شُرع حدُّ السرقة، وحمايةً لحق الأعراض شُرع حد الجلد والتغريب والرجم.

وهكذا يُرسى الإسلامُ قواعدَ السلام. وتدعيمًا لذلك يقول النبى لأحد أصحابه: «ألا أدلكَ على صدقةٍ هى خير لك من حُمر النعم؟ قال نعم يا رسول الله. قال: تُصلح بين الناس إذا فسدوا، وتقرِّب بينهم إذا تباعدوا».

إسلامى حُسن الخلق

قسوةُ الحيـاة والعيش فى الصحارى القاحلة. . وافتقـار العقيدة الصحيحة هى بعض الأسباب التى خلَّفت فى القبائل العربية جفاءَ الطبع وحـدته وجفافَ العـاطفة. فكانوا يُغـيرُون ويَنْهَـبون دون شعورٍ بالذنب، ووَخْـزِ الضمير، بل الأعجبُ أنهم كـانوا يتقرّبون ببعض ما سرقوا لآلهتهم، وما ربحوه من الميسر يتصدقون به على الفقراء.

لذا تجدهم يُمـجِّدون شعـراءهم، فعندمـا يعثرون على شـاعر لديهم يتصايحـون ويتهافتون عليه ويذيعـون أشعاره فى رحلاتهم ويتغنون بشعره لما له من فضلٍ فى قدح شـرارة أحاسيسهم الخامدة التى أفقدتهم حياةُ التنقُّل والفيافى الشعورَ بها.

فكان على عاتق النبى ﷺ مسئوليـةٌ عسيرة هى الأخذُ بأيديهم نحو حيـاة مغايرة تمامًا، ليـست كما عهـدوها وآباؤهـم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، بل هى حياة أفـضل، وكان مكلفًا بهدم كل ما شادته السنون فى الأخلاق والعقائد وإحلال غيرها. فاحتملَ النبى فى نشر دعـوته فظاظةَ الأعراب وجهامـةَ قومه، فهـذا يجذبه من

ثوبه، وآخر يتطاول عليه بكلام جارح، وآخرون يمزقون ثيابه، ويَحْثُون على رأسه التراب، فكان على بينة بأخلاقهم وسوئها، وعلى بينة بأن إعادة تشكيلها ليس بالأمر السهل، بل يتطلب منه سعة الصدر، وقوة الاحتمال، والصبر والمثابرة، وكانت الآيات الربانية تأتيه تسانده وتشد من أزره، وتحثه على ملازمة حسن الخلق ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل. ١٢٥]. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران. ١٥٩].

وإذا ألقينا نظرةً إلى أحاديث النبى فى الرفق والعفو والإحسان والإيثار والتواضع وتجنُّبِ الظلم والحضِّ على العدل والمساواة والأخلاق وغير ذلك من الشئون التى تهم الفرد والمجتمع، نجده متطلعًا إلى الأخذ بيد الإنسانية لتبلغ ذرا الكمال والمثالية، ولو أن أفلاطون عاصَرَه وسمع ما يقول، ما خَطَّ حرفًا فى جمهوريته؛ لأنه لن يتأتى له ما أوتى ﷺ من حكمة بالغة سبر بها غوْر معاناة النفوس والمجتمعات

وقد ركَّز النبى على تهذيب الأخلاق، وجعل ذلك قاعدةً أساسيةً ترتكز عليها دعائمُ الإسلام، فحين سُئل أى المؤمنين أفضل إيمانًا، قال. أحسنهم أخلاقاً

وقيل له: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليلَ، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها؟ قال: لا خير فيها، هى من أهل النار.

وجاء رجل يسأله ما الدِّين؟ قال حسن الخلق، فأتاه الرجل من قِبَل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: حسن الخلق. ثم أتاه من قِبل شماله وسأله، ومن ورائه يسأله: ما الدين؟ فقال النبى له: أن لا تغضب

وجاء آخر يطلب النصيحة - كما كانت عادة صحابته دائمًا يتحسسونها منه، فكان مِما أوصاه به: خالِقِ الناسَ بخُلُق حسن.

وسأله آخر عن حسن الخلق، فقال له: هو أن تَصِلَ مَن قطعكَ، وتعْطِى مَن حَرَمكَ وتَعْفُوَ عَمَّن ظلمك.

وكان ﷺ يُرغِّبُ صحابته فى حسن الخلق فيقول: أثقلُ ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق.

ويقول: إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم، فسعوهُم ببسط الوجهِ وحُسْنِ الخلق.

ويقول: سوءُ الخُلُق يُفْسُِد العملَ كما يُفْسِدُ الخلُّ العسلَ.

ويقول: إنَّ أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا.

ويقول: إن حُسن الخُلُق لَيُذيب الخطيئةَ كما تذيب الشمسُ الجليدَ.

وكان يُكثر الدعاء لنفسه بقوله: «اللهمَّ كما حسَّنْت خلْقى فَحَسِّنْ خُلُقى».

«اللهم إنى أسألكَ الصحةَ والعافية وحُسْنَ الخُلُق».

«اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرِف عنِّى سيِّئها لا يصرف عنى سيِّئَها إلا أنت».

وسألوه ذات مرة: ما خيرُ ما أُعطى العبدُ؟

قال: حُسن الخُلُق.

ولهذا فقد نهج الصحابة والتابعون والسلف نَهْجَه؛ فهذا ابن المُبارك صحبَ رجلاً سيِّئ الخلق، وظل يتحمل أذاه وسوء خُلُقه برَحابة صَدْرٍ، ولما افترقا بكى ابن المبارك، فَسُئلَ عن ذلك، قال لهم: بكيته رحمةً له، فارقته وخُلُقُهُ معه لم يفارقه.

وقال التابعون عن حُسن الخُلُق:

- هو بسطُ الوجه، وبذلُ الندَى، وكَفُّ الأذى.

- أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه.

- هو أن لا يُؤَثِّر فيك جفاءُ الخَلْقِ بعد مطالعتك الحقَّ

والرفقُ مِن حُسن الخُلق، فتحكى السيدة عائشة زوجُ النبى أنها كانت معه فى سفرٍ على بعير صعب، فجعلت تصرفُه يمينًا وشمالاً، فقال لها الرسول: «يا عائشة عليكِ بالرفق فإنه لا يدخل فى شىء إلا زانه، ولا يُنزع من شىء إلا شانه».

ويقول: «أيما والٍ وَلِىَ فرَفُقَ ولانَ: رفقَ اللهُ تعالى به يوم القيامة».

ويقول: «تدرون مَن يحرَّم على النار يوم القيامة؟ كلُّ هيِّنٍ ليِّنٍ سَهْلٍ قريب».

ويقول: «إذا أحَبَّ اللّهُ أهلَ بيتٍ أدخلَ عليهم الرِّفْقَ».

ويقول: «إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ ويعطى عليه ما لا يُعطِى على العنف».

ويقول: «مَن يُحْرَمُ الرفْقَ يُحرمُ الخيرَ كلَّه».

وكان النبى ﷺ يعلِّم صحابته والتابعين أنَّ الحكمَ لا يُبنى على المظهر، ولكن على الجوهر، فلا يعتدُّ الشخص بماله وجاهه أو حَسَبِه ونسبه، ولكن يعتدُّ بما حاك فى صدره من خير وبما يقدمه لأخيه الإنسان مِن طيب. فذات يوم بينما كان يجلس بينهم إذ مَرَّ أمامهم رجل بادى الفقر والمسكنة.

فسألهم: ما تقولون فى هذا؟

فـقـالوا: هو والله خليق إنْ خَـطب ألا يُزوَّج ، وإن تكلَّم ألا يُصغَى إليه. فـيسكت النبى حتى يمر رجل آخر تبدو عليـه النعمة وأثر الترف.

فسألهم: ما تقولون فى هذا؟

قـالوا: هو واللـه حَـرِىٌّ إن خطب أن يُزوج، وإن تحـدَّث أن يُستمع له، فـيقول لهم عليه السـلام: والذى نفسى بيده إن الأولَ لخير مِن ملء الأرض مِن مثلِ هذا.

وفى أحـد الأيام جاء ممثلٌ لكفّـار قريش برسـالة منهم يريدون تبليغَها للنبى ﷺ، فماذا قال؟ فلنسمع عجيب قوله ونصغى إليه: «يا محمـد إن أشرافَ قومك يرون أن يستمـعوا لكَ، ولكنهم لن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقـرائها، فإن شئتَ أن تجعل لهم يومًا ولأتباعك يومًا». انتهت رسالتهم.

ولكن الإسلام ينـبذ التمـييز بـين الناس، فالجمـيع خلقُ الله، وكلهم من آدم وحواء، وجميعهم إلى تراب، فلِمَ المفاضلة؟

ولذا جاءت الآية حاسمةً هذا الأمر، منصـفة للطبقة الكادحة: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ورفض النبى ﷺ الطلب المقدمَ مِن كـفّار قريش بعد التـوجيه الإلهى، بينما ازداد قـربًا والتصاقًـا بالفقراء والمساكـين، حتى إذا لقيهم بادرهم قائلاً: «أهلاً بمن أوصانى بهم ربِّى»

وتحقـيقًا لقـول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْـرَمَكُـمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

لم يقل أبيضكم أو أغناكُم أو أجلُّكم نسبًـا وحسبًا، ولكن قال أتقاكم.

وفى الوقت الذى كان يرزح صنف من البشر تحت نير العبودية ويرسف فى أغلالـها، فى وقت ساد فـيه الفكر الإغريـقى القائم على العنصرية والتـفريق بين بنى الإنسان؛ امتـثالاً لمقولة أرسطو: «إن العبد تسيطر بـنيتُه على روحه، بينما السيدُ تـسيطر الروحُ فيه على بنيته» فى زمن فُرِّقَ فيه بين البشر لأسباب لا دخل لهم فيها، ربما اختطفـوا من أوطانهم، وربما أسروا فى حروب انقادوا إلـيها جبرًا وربما كان ثمنهم أنقذ جياعًا من الهلاك.

فى ذاك الزمـان المظلم الموحـش أطلَّ النبىُّ ﷺ بنوره، وجـاء لإنصاف هؤلاء المطـحونين المهمَّـشين المنبـوذين جانبًـا كأنهم داء معْـدٍ؛ فيقول: «لا يقـولن أحدكم عبـدى وأمتى، وليقل: فـتاى وفتاتى».

ويقول: «هم إخوانكُم، فأطعِموهم ممّا تطعمون، وألبسوهم مِما تَلبسون».

ويقول: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل فارفعوا العبيد إلى جواركم»

ويقول: «كلُّكم سواسية كأسنان المشط».

ويقول «إنما تنُصرون وتُرزقون بضعفائكم»

ويقول: «لا تعذِّبوا خَلْقَ الله؛ فإن الله ملَّككم إياهم، ولو شاء لَمَلَّكهم إياكم»

ويقول. «إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فليُجْلِسْه وليأكلْ معه، فإن لم يفعل فليناوله لقمةً».

ويرى الصحابى الجليلُ أبو هريرة رجلاً على دابته، وغلامُه خلفه يترجل، فقال له: يا عبدالله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك.

وعمر بن الخطاب أميرُ المؤمنين الذى خضعت الأمصار لإمرته، فبعد انتصاره على الروم يذهب إليهم ليفتح بيت المقدس ويعطى الأمان لأهلها، يذهب ومعه خادمه، وبعيرٌ واحد أبَى أن يمتطيه وخادمُه يسير على قدميه، فتناوبا الركوبَ عليه عدلاً، فيخوض عمرُ الوحْل ويسحبُ بعيره وخادمُه فوقه، ودخل على أشراف

الروم على حالته هذه سائرًا على قدميه ومِقْود بعيره بيده، وخادمه راكب.

وعمد النبيُّ إلى تهذيب أخلاق قـومه من الكِبْر، وحثهم على التواضع فيقـول: «من كان فى قلبه مِثقال حبـةٍ من خردلٍ من كبرٍ أكَبَّهُ اللهُ فى النار على وجهه».

وسأله رجل: إنّى امـرؤ حُبِّبَ إلىَّ من الجمال مـا ترى، أَفَمِن الكبر هو؟ فـقال له: لا ولكن الكبر بـطرُ الحق وغمطُ الناس» أى ازدراؤهم واستحقارُهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه.

ويقول لأصحابه: «ما زادَ الله عـبدًا بعفوٍ إلا عِزّا، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعهُ الله».

ويقول: «التواضعُ لا يزيد العبدَ إلا رفعـةً؛ فتواضعوا يرحمكم الله».

ويقول: «إنه ليـعجبنى أن يحـملَ الرجُلُ الشىءَ فى يده يكون مهنةً لأهله؛ يدفع به الكبر عن نفسه».

فكان نبينا يكنسُ البـيت ويحلبُ الشاةَ، ويصلح النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيـا، ويشترى الحاجة من الســوق، ويعلّقـها فى يده، لا يداريهـا فـلا يرى حرجًـا فى ذلك

وكان يقى نفسه دائمًا من العُجْب والغرور والكِبْر، فيحمل الحجارة مع أصحابه على كاهله لبناء المسجد، ويحفر معهم خندق المدينة، ويشد على بطنه حجرًا لشدة الجوع كأحدهم، وإذا ساروا فى طريق مشى فى غمارهم.

ويخرج مع أصحابه ذات يوم فيقول أحدهم: أنا علىّ ذبح الشاة، ويقول آخر: وأنا علىّ سلخُها، ويقول ﷺ: وأنا علىّ جمعُ الحطب.

وتخلَّقَ أتباعه بخلُقه وساروا على دَرْبه؛ فروى أن عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين أتاه ضيفٌ وكان يكتب، فكاد السِّراج يُطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحُه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال الضيف: أفأنبِّه الغلام؟ قال عمر: هى أولُ نومةٍ نامها. فقام عمر وملأ المصباح زيتًا. فقال الضيف: قمتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: ذهبتُ وأنا عمر، ورجعتُ وأنا عمر، ما نقصَ منِّى شىءٌ! وخيرُ الناس مَن كان عند الله متواضعًا.

وما وجدَ النبىُّ ﷺ فضيلةً إلا وبادر بغَرْسها فى أصحابه؛ فمنها يزرع فيهم حب الإيثار ويبدأ بنفسه. فلقد جاءته يومًا ابنته فاطمة بينما كان يقوم بتقسيم فَىْءٍ، فأرجأها وقال لها: «حتى يكتفى الناس أولاً».

وتقول السيدة عائشة: «ما شبعَ رسولُ الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارقَ الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا».

هكذا كان شعاره: إن محمدًا وأهلَه هم أوَّلَ من يجوع إذا جاع الناس، وآخِرِ من يشبع إذا شبع الناس.

ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ويحكى سيدنا عمر وإذ ترسّخَتّ فى المسلمين حب الإيثار: «أُهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله رأسُ شاةٍ فقال: إن أخى كان أحوج مِنِّى إليه فبعث به إليه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعةُ أبيات ورجع إلى الأول».

وفى العفو والإحسان تقول الآيات: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وندَّد النبى بالفحش والسب وبذاءة اللسان فى أحاديثه فيقول «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذىء».

ويقول: «إن الفُحْشَ والتفاحشَ ليسا من الإسلام فى شىء، وإن أحسنَ الناس إسلامًا أحاسِنُهم أخلاقًا».

ويقول عن الأمـانة: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حـدَّثَ كذب، وإذا وعد أخلفَ، وإذا اؤتُمن خان».

وجاء رجلٌ يقول: يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ فى سبيل الله صابرًا محـتسبًا مقـبلاً غير مدبر، يكفِّـر الله عن خطاياى؟ قال: نعم. فلما أدبر الرجل ناداه، وقال: يغفر الله للشهيد كلَّ ذَنْب إلا الدَّيْن».

ويأمـرنا الله تعالى فى القـرآن أن نؤدى الأمانات إلى أهلـها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء : ٥٨].

ويقول النبى ﷺ أيضًا: «لا دِينَ لمنْ لا أمانةَ له».

وأمرنا الإسلام بقول كلمة الحق وطَرْحِها فى وجه الظالم مهما كانت العاقبة، ونصرة المظلوم، فيـقول النبى: «أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر».

ويقول: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا».

فتعَجّبَ الصحـابة؛ فنصرةُ المظلوم واجبة ومما تنادى به الفطرة، أما أن يكون ظالمًا وننصـره فكيف؟!. حينها أبـان لهم النبى كيف يُنصر الظالم بأن يأخذ على يده ويُمنع عن ظلم العباد.

وفى العـدل يقول: «من ضرب سـوطًا ظلمًا، اقـتُصَّ منه يوم القيامة».

وذات يومٍ دعا إلى القصاص من نفسه حينما خدش أعرابيًا دون قصد.

ويقول لأسامة وأصحابه عندما جاء يتشفع فى امرأة سرقت وكانت من أشراف قومها: «إنما هلك الذين مِن قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، وأَيْمِ الله لو أن فاطمةَ بنت محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يَدَها».

ويعلم النبىُّ أن أحد ولاته قَبل هديةً، فغضب غضبًا شديدًا، وبعث إليه يستدعيه، فلما مَثُلَ أمامه سأله: كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟ فقال الوالى: لقد كانت هدية يا رسول الله. فيقول له النبى: أرأيت لو قعد أحدكم فى داره ولم نُولِّه عملاً أكان الناس يُهدونه شيئًا. فأمره برد الهدية ثم قام بعزله.

ويقول: «لأن يأخذ أحدكم حَبْلَهُ فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتى فيحمله على ظهره فيأكل خَيْرٌ له من أن يجعل فى فيه ما حرَّم الله عليه».

ويقول: «من كسب مالاً حرامًا فأعتق منه ووصل منه رحمَهُ، كان ذلك إصرًا عليه»

ويقول «لا يدخل الجنة لحمٌ ودمٌ نبتا من سُحتٍ إلا والنارُ أولى به»

ويقول لِصاحبه سعد: «يا سعد، أَطِبْ مَطعمَك تَكُنْ مستجاب الدعوة»

ويقول: «من اشترى سرقةً وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك فى عارها وإثمها».

ويوصينا بالجار - أيًا كانت ديانته أو لغته أو لونه - ويبيِّنُ ما له من حقوق فيقول: «الجيران ثلاثة: جارٌ له حق واحد وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الذى له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذى له حق واحد: فالجار المشرك».

ويقول: «أحسِنْ مجاورةَ من جاورك تَكُنْ مسلمًا».

ويقول: «لا يؤمن عبدٌ حتى يأمَنَ جارُه بَوائقه».

ويقول: «إذا أنت رميت كلبَ جارك فقد آذيته».

ويوصى ﷺ صاحبه أبا هريرة: «إذا طَبختَ قدْرًا فأكثِر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيتٍ فى جيرانك فاغرف لهم منها».

ولم يترك النبى ﷺ شيئًا فيه إسعادٌ للخلق وصَلاحٌ بين الناس إلا قال فيه، وما وجد شيئًا فيه شرٌّ للناس إلا ونَهى عنه.

فقد أمر بصلة الرحم ونهى عن الغِيبة والنميمة، وعن الزنا

والكبر والـغرور والبخل، وعن شـرب الخمـر، وعن الاستـهزاء والسخرية من الناس، وعن الكذب وعن الغضب.

وخلاصـة القول ما جـاء فى وصيتـه لمعاذ إذ قال: «يا مـعاذ، أوصـيك باتقاء الـله، وصدق الحـديث، والوفـاء بالعهـد، وأداء الأمـانة، وترك الخيـانة، وحـفظ الجار، ورَحْـمَـةِ اليتـيم، ولين الكلام، وبذل الســلام، وحـسن العـمل وقِـصَـرِ الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحُبٌ الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجـناح، وأنهاكَ أن تَسُبَّ حكيـمًا، أو تكذب صـادقًا أو تطيع آثمًـا، أو تعصى إمامًـا عادلاً، أو تفـسد أرضًـا، وأوصيك باتقاء اللـه عند كل حجر وشـجر ومدر، وأن تُـحدث لكل ذنب توبةً: السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

ولكل ما تقدم يقول سيدنا أنـس: «لم يدع ﷺ نصيحة جميلة إلا وقد دعـانا إليها، وأمرنا بهـا ولم يدع غِشاً إلا حـذَّرَناه ونهانا عنه».

ورغم كل أحمال الأمـة وهمومها، ومتـاعب نشر الدعوة التى كانت فوق كـاهل النبى ﷺ ما عبس وجهـه أو بسر، ولكن كان يحب المزاح الحق الذى لا يؤذى الآخرين ومـشاعرهم ولا تدليس فيه.

ومثال للمزاح الساخر المنهى عنه أنه أقبل أعرابى إلى النبى على

قلوص - ناقة - صعب، فسلم، فجعل كلما دنا من النبى ليسأله، يفر به، وجعل أصحاب النبى يضحكون منه، ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل: يا رسول الله إن الأعرابى قد صرعه قلوصُه فهلك. فقال: "نعم، وأفواهكم ملأى من دمه.

* وجاءت إلى النبى امرأة فقالت له: إن زوجى يدعوك.

فقال لها: ومَن هو؟ أهو الذى بعينه بياض؟

فقالت المرأة: واللهِ ما بعينه بياض.

قال لها: بلَى إن بعينه بياضًا.

قالت: لا والله.

فقال: ما من أحد إلا وبعينه بياض.

* وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله، احملنى على بعير.

قال لها: بل نحملك على ابن البعير.

قالت: ما أصنع به؟! إنه لا يحملنى.

قال: ما من بعير إلا وهو ابن بعير.

وصنعت السيدة عائشة يومًا طعامًا للنبى ﷺ؛ وكانت عندها السيدة سودة، فقالت لها: كلى، فأبت سودة، وقالت عائشة: والله لتأكلِنَّ أو لألطخن به وجهك، وعندما رأت إصرارها على

عدم تناوله، أخذت منه شيئًا ولطخت به وجهها، والنبى جالس بينهن، فخفض النبى ركبتيه لسودة لتتمكن من عائشة وتلطخ وجهها، وعندما فعلت ضحك النبى ﷺ

* وجاءت إليه امرأة عجوز وسألته أن يدعو لها أن تدخل الجنة فقال لها ﷺ لا يدخل الجنة عجوز.

فبكت المرأة ، فقال لها: «إنك لست بعجوز يومئذ».

* وكان هناك رجلٌ يحب مجالسة النساء، فرآه النبى يومًا يتوسطهن فقال له يا أبا عبدالله، ما لك مع النساء؟

فقال الرجل. يفتلن ضفيرًا لجملٍ لى شرود.

وقضى النبى حاجته وعاد فلما رآه قال له: يا أبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟!

وكان كلما لقيه قال له ذلك حتى أن الرجل أضحى يتفرر منه إذا لمحه. ولحقه النبى يومًا وهو على حمار فسأله كعادته. يا أبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟

فقال الرجل والذى بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمتُ

إسلامى والمرأة

قـبل أن نشرع ونسـتشـرف مـا آل إليه حـال المرأة تحت مظلة الإسلام، يتـحتم علينا أن نتـجول فى العالم الـقديم ونستـعرض وضع المرأة فى الأمم الغـابرة أثناء ظهـور الإسلام وقـبله، فنبـدأ بالإغريق فكـانوا يعدُّونها كـالبهائـم لا تصلح إلا لإنجاب الأولاد الأقـوياء الصالحـين للجندية والقـتـال، وإلا قُتلت أو تؤخـذ من زوجها عنوةً وتعار لغـيره لتلد منه أولادًا أقوياء يُزج بهم فى أتون الحروب.

وقال مشـرِّع الهند «منو»: «تخضع المرأة فى طفولتهـا لأبيها، وفى شبابهـا لزوجها، وفى تأيُّمها لإبنائهـا إذا كان لها أبناء، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بعلها ؛ أى لا يجوز ترك أمرها لنفسها».

كمـا ورد فى شـرائع اليونان والرومـان، أن سلطان الرجل فى روما على زوجـته كان مطلقًـا، وكانت تُعد أَمَـةً لا قيمـة لها فى المجتمع، ولم يكن لها قاض سوى زوجها، الذى بيده حق حياتها وحق موتها.

وكذلك الشـريعة اليونانيـة لم تعتـرف لها بأى حق، ولا بحق الميراث.

وكانت النســاء فى الصين يحرقن أنفســهن إذا مات الزوج؛ إذ كان يعتقد أن هذا تكريم له.

وفى بلاد الهند كان الرجل يتزوج دون تقييد فى عددهن، شأنه شـأن جميـع الأمم آنذاك، ويضع كلاً واحـدة على حـسب مكانة أسرتها الاجـتماعية؛ فـتتفاوت معامـلته لهن على هذا الأساس، ومن ثم يسقط مبـدأ العدل بينهن، وكانوا يعتبرون الـزوجة مصدر عارٍ وشرٍ؛ لذا كان الحرق لهن بعد مماته.

وكان الفُـرس يتصـرَّفون فى المرأة كـالسلعة، ولا يـجدون أى حرج فى الحكم عليهـا بالموت، وفى مصر الفرعونيـة كانت تقدَّم قربانًا لنهر النيل.

وكان الأفـارقة يتـزوجون من النســاء على قدر مـا أتيح لهم، وكانــوا يدفعــونهن للعمل خـارج البيت للتـغلب على مصـاعب المعيـشة والفـقر، لدرجة أن المرأة كـانت تفرح لزواج زوجـها من أخريات لما تجده من تخفيف الأعباء والضغوط عنها.

ولم تكن نســاء العرب أحــسن حالاً من الأخريـات؛ إذ كانت البنات يدفنّ فى التراب وهن أحياء، و كانت المرأة إذا مات زوجها انتقل الحق فيها لوليه؛ إن شــاء تزوّجها أو زوَّجها أو لم يزوجها، فهو أحق بها من أهلها. وكان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى

عليها حميمه ثوبه، ومعنى هذا أنها أصبحت له من دون الناس، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها أو تفتدى منه بفديه. وكانوا إذا مات الرجل ورث الوارث امرأته مع بقية ماله، وكان الرجل إذا طلَّق زوجته يشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراده، فيأتى بالشهود، ويكتب ذلك عليها، ويُشهِد على هذا الشرط، ولا يُطلق سراحَها حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاها.

وجاء الإسلام ليشهدَ الظلمَ الواقعَ على المرأة، فشرع فى إنصافها، ففرض حقوقها على الجميع؛ فلها حق الحياة، ولها حق الإرث، ولها حق إبداء الرأى فى مصائرها، ولها حق الشورى، ولها حق التعلُّم والتفقه.

وعندما جاء الإسلام وجد المرأة منزوعة الشخصية، لا كرامة لها، ولا حرية، بل لا سلطان لها حتى على نفسها، فتُقتل، وتُباع وتعار، ويُبغَى بها، وتورَّث، وتُعْضَل، فكانت كالحيوان بل كالجماد، فلم يرض لها الإسلام ما صارت إليه، فأيقظ همتها، وبدَّل استكانتها عزًا، ورفع مكانتها.

فنزلت الآية تنهى المسلمين عن وأد البنات، وتتوعدهم بأنهم مسئولون عن جريمتهم الشنيعة فى حق الموؤدات، وأنهن يوم

القيامة سوف يطالبن بالقصاص ممن وأدهن ﴿وإذا الموءودة سُئلت ⑧ بأى ذنب قُتلت﴾ [التكوير: ٨-٩].

ووصف لنا الله تعالى حالَ الكفار عندما يبشَّرون بالأنثى، ليس للتسلية والتندر، ولكن لنتعظ ونبتعد عن هذه الصفات المقبوحة والتى تأنفها الفطرة الإنسانية فقال: ﴿وإذا بُشر أحدُهم بالأنثىٰ ظلَّ وجهُهُ مسودًا وهو كظيمٌ (٥٨) يتوارىٰ من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكُهُ علىٰ هونٍ أم يدُسُّهُ فى التُّراب﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩].

فيسوَدُّ وجهُ الكافر حزنًا، بل يتوارى عن أعين الناس خوفًا من معايرته بمولد الأنثى، متحيرًا فى الاختيار: أيتركها مهانة لا إرث لها ولا رعاية؟ أم يدفنها فى التراب؟ ومع أن الإسلام يجبُّ ما قبله من ذنوب وكفر، إلا أنه لشناعة الوأد جعل له كفّارةً؛ فقد جاء الصحابى قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إنى وأدت بناتًا فى الجاهلية؟ فقال له النبى: أعتق عن كل واحدة منهن رقبه. قال: يا رسول الله إنى صاحب إبل.

قال له النبى: فانحر عن كل واحدة منهن بُدنَة.

وكان ﷺ دائم الحث على إيقاظ القلوب وترقيقها للحنو على البنات فيقول: «مَن عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضمَّ أصابعه».

وتحكى السيدة عـائشة للنبى ﷺ أن امرأة جاءتهـا تحمل ابنتين لهـا تسألهـا طعامًـا، فلم تجـد السيـدة عائشـة إلا ثلاث تمرات، فدفـعت بهن إليـها، فـأعطت المرأةُ كل واحدة من بنتـيهـا تمرة، ورفعت بالباقـية إلى فيهـا لتأكلها، فاستطعـمتها ابنتـاها، فشقَّت التمرةَ التى كانت تريد أن تـأكلها بينهما، فأعجبت السـيدة عائشة برحمتـهـا وعطفها على بنتيـها، فنقلت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فعـقب النبى على ذلك قـائلاً: «إن الله قد أوجبَ لهـا الجنة [أو أعتقها بها من النار]».

وكان يقول زاجرًا محـذرًا من تضييع حقوق المرأة: «اللهم إنى أُحَرِّجُ حقَّ الضعيفين: اليتيم، والمرأة».

ويقـول: «أكمَـلُ المؤمنين إيمـانًا أحسنـهم خُلقًا، وخِـيـارُكم خيارُكم لنسائهم».

ويقول: «إنَّ لكم من نسائكم حَقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا».

وقال فى آخر خـطبة له قبيل وفـاته: «استوصوا بالنسـاء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وتقـول الآية مـوصيـةً بحُـسْنِ المعَـاشَـرة ولين الجـانب لهن: ﴿ وعاشِروهُنَّ بالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩].

وإذا طُلقت المـرأة وانفـصلـت عن الرجل: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ

بالمعروف حقا على المتقين﴾ [البقرة: ٢٤١]

وإضافةً إلى حق متاعها، فإن لها المفارقة بالحسنى؛ لا قبح، لا شتم، ولا تعنيف؛ لقوله تعالى: ﴿فارقوهن بمعروف﴾ [الطلاق: ٢].

وأيضًا فى زواجها صداق: مهر يُدفع لها واجبٌ على من أراد الدخول بهن؛ فيقول تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ [النساء ٤].

كما أن المرأة تُستأذن فى زواجها، ولا يصح العقد إلا بإيجابها.

وفى حالة الزواج بأكثر من واحدة، يجب على الرجل العدل بينهن؛ فلا يفضِّل أو يقرِّب إليه واحدة عن الأخرى، فيقول النبى ﷺ مبينًا موقف إجحاف من يفعل ذلك «من كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحدُ شقيه ساقطٌ».

وإذا أتينا إلى قضية الإرث التى أثارت وما تزال تثير جدلاً واسعًا طمَّ المشرق والمغرب، واتُّهم الإسلام فيه جزافًا بعدم المساواة بين الرجل والمرأة، إذا أتيناها كان علينا النظر إليها من المنظور الإسلامى وليس الغربى؛ لأن هناك فرقًا شاسعًا بين الاثنين؛ فالغرب ينظر إلى المرأة على أنها واحدة، فردٌ فى المجتمع مستقل بذاته، أما عند الإسلام فهى عضو أساسى ثابت حيوى مكمل

للرجل، والرجلُ فى نفس الوقت مكمِّل لها، فلا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر، وعلى هذا بُنِىَ الحكم؛ فالإسلام يفرض على الرجل الإنفاق على من يعول، ولا يجوز له أن يأخذ من مال المرأة الخاص شيئًا إلا برضاها وعن طيب نفس، وبذلك فهى غير مطالَبة بالنفقه على الأسرة.

«والباحث المنصف فى أحكام وقواعد الميراث يتبين له أن أنصبة الميراث لا يتحكم فى توزيعها بين المستحقين عامل الذكورة أو الأنوثة، بل ثلاثة عوامل:

١- درجة القرابة بين الوارث ذكرًا أو أنثى وبين المورث المتوفى، فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب فى الميراث.

٢- موقع الجيل الوارث من التتابع الزمنى للأجيال؛ فالأجيال التى تستقبل الحياة عادة يكون نصيبها فى الميراث أكبر من الأجيال التى تستدبر الحياة، بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين، أى أن فرع الميت أَوْلَى من أصله؛ فالبنت ترث أكثر من الأم وكلتاهما أنثى، بل وترث أكثر من الأب، والابن يرث أكثر من الأب، وكلاهما من الذكور، بل البنت قد تحجب العم أحيانًا وهكذا.

٣- العبء المالى الذى يوجبه الشرع على الرجل دون المرأة؛ فإن العدل يستوجب تفاوتًا بينهما فى قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله

في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثنين﴾ لأن الذكر الوارث هنا - في حالة تساوى درجة القرابة والجيل - مكلف بإعالة زوجة أنثى، بينما الأنثى - الوارثة - إعالتها فريضة على الذكر المقترن بها.

لذلك تُلزم الشريعة الرجل بالإنفاق على المرأة: الزوجة والإبنة والأم والأخت عند الحاجة، ولا تلزم الزوجة بالإنفاق على نفسها أو أسرتها، وإن كانت غنيه، فجميع ما تملك من أموال لها وحدها»(*) .

وحين تخرج المرأة للعمل وتنافس الرجال فى جميع الميادين وقد تتفوق عليهم أحيانًا، ليس معنى هذا نقض المعايير -القاعدة- التى وضعها الله التى يريد بها العدل من أجل استثناء.

ودعوى مساواة المرأة بالرجل فيها قصورٌ منافٍ للطبيعة؛ فلا الرجل يسوًى بالمرأة، ولا المرأة تسوًى بالرجل، كلٌّ منهما خلق وجُبل على هيئة معينة مناسبة لظروف معينة. فالمرأة فى أى مكان وزمان، وعلى جميع المستويات الثقافية والاجتماعية هى المرأة الحنون التى تعشق الأمومة وتحب البيت والأطفال والزوج، وتكرس حياتها لهم، أما غير ذلك فهن استثناء، وبديهةً لا يجوز استبداله بالقاعدة

(*) ميراث الأنثى فى الإسلام د سعاد صالح - الأهرام.

وبعد هذا العرض الموجز فهل أجحف الإسلام بالمرأة؟ .

وحسبى هنا نقل شهادة العلاّمة الفرنسى غوستاف لوبون مختتمًا بها كلامى فى هذا الموضوع إذ يقول: «الإسلام قد رفع حالَ المرأة الاجتماعى وشأنها رفعًا عظيمًا بدلاً من خفضها، خلافًا للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقًا إرثية أحسن مما فى أكثر قوانيننا الأوربية، كما أثبت ذلك حينما بحثت فى حقوق الإرث عند العرب، أجَل أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوروبا التى قالت به، ولكنه اشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف».

إسلامی شوری

﴿ وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

أمرٌ إلهى صريح لكل راع للأخذ بمبدأ الشورى، وقد كان النبى ﷺ يستشير أصحابه فى جميع الأمور، حتى أن السيدة عائشة قالت عنه: «ما رأيتُ رجلاً أكثرَ استشارةً للرجال من رسول الله».

وكان النبى يرى الرأىَ فيرجع عنه لرأى أصحابه، وإن كان كارهًا له، فقال يومًا لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما: «لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتُكما» وكان يشاورهم فى غزوه، وفى سلمه وفى حياته الخاصة ويقول: «لا خاب من استشار».

وشاورهم فى بدر، وفى أُحد، وفى الخندق، وكان يقول لهم: «أشيروا علىّ معشر المسلمين».

ويقول لأصحابه: «إذا استشارَ أحدُكم أخاه فليُشِرْ عليه».

وقد عدَّد اللهُ مناقبَ المؤمنين ومن بينها مبدأ الشورى فيقول: ﴿ والَّذين يجتَنبُون كَبَائرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحش وإذَا مَا غَضبُوا هُمْ يغْفِرُون (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ومِمَّا رزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧ - ٣٨].

وسار السلفُ يحملون على عاتقهم إرساء قواعد الديمقراطية؛ فوضعوا أصولها قولاً وعملاً حتى التقفها الغربُ الذى أنكرها عليهم فيما بعد. فيقول الحسن رضى الله عنه: «الناس ثلاثة: رجلٌ رَجل، ورجلٌ نصفُ رجل، ورجلٌ لا رجل. فالرجلُ الرجلُ: من له رأىٌ ومشورةٌ، والرجلُ نصف الرجل: من له رأى ولا مشورة له، والثالث: مَن لا رأى له ولا مشورة».

ولا شك أن التاريخ الإسلامي قد حفل بالعديد من الوقائع التى احترم فيها الحاكم رأى الجماعة.

فها هو سيدنا أبو بكر يقول حين خلف النبى ﷺ وولى أمرَ المسلمين: «أيها الناس قد وُليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى، الصدق أمانة».

ويتجسد الامتثال للشورى فى سيدنا عمر عندما نهى عن المغالاة فى المِهور؛ فقد راجعته امرأة من عامة الناس وامتثل لرأيها، وقال مقولته الشهيرة: «كلُّ الناس أفقَهُ من عمر». تعالَوْا لنرى ونسمع هذا المشهد الرائع؛ فها هو ذا سيدنا عمر يرتقى المنبر ليخطب فى الناس: «أيها الناس ما إكثاركم فى صداق النساء، وقد كان رسول الله وأصحابه والصَّدُقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك؟! ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفنّ ما زاد رجل فى

صداق امرأة على أربعمائة درهم!

وينزل عمر، فتعترضه امرأة قائلة: يا أمير المؤمنين نهيتَ الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم؟

قال: نعم.

قالت: أما سمعتَ ما أنزل الله؟

قال: وأى ذلك؟

قالت: أما سمعت اللهَ يقول: **﴿وآتيتم إحداهن قنطارًا﴾**؟

ويرتد سيدنا عمر عن عزمه ويراجع نفسه فيقول:

اللهم غفرًا! كلُّ الناس أفقه من عمر.

وفى الحال يصعد المنبر ويقول: أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمَن طابت نفسه فليفعل.

نعم أمر القرآن بالشورى، وكذلك رسولنا وأصحابه والتابعون، وهم القدوة للأمة، فعلى ضوء سننهم يسير المسلمون فى كل زمان. وما يستحدثه بعض أتباع الإسلام فى وقتنا الحاضر من سحق لآراء الناس ومصادرتها، وتكميم الأنفاس والأفواه لا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، لا من قريب ولا بعيد، لذلك نقول بدورنا: اللهم غفرًا؛ لقد أساءوا وشوَّهوا دينك، ولا تؤاخذنا بما فعل الجهلاء والسفهاء مِنَّا.

إسلامي يَحُثُّ على الفكر والعلم

تَفَكُّر

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية: «يرشد تعالى عبادَه إلى التفكُّر فى آلائه وما خلق الله فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب، مما فى السموات من كواكب نيِّرات، ثوابت وسيّارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما فى الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما فى البحر من العجائب والأمواج».

ويقول الله تعالى شاحذًا فكر الإنسان ليدرك نعمه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢- ٣٤]. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠- ٣٣]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]. ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٥٩]. ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٤]. ﴿أَفَرَأَيْتُم

﴿الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٦٩]. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١- ٧٢]. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهكذا يزخر القرآن الكريم بالآيات والاستفسارات التي تحث الإنسان على إعمال عقله والتمسك به والرجوع إليه دومًا؛ حتى ترسو نفسه على شاطئ الحقيقة، ولهذا يأخذ الله سبحانه وتعالى بيدنا على مهل بتؤدة ليضع خطانا على طريق الهداية، فيلفت أنظارنا إلى خلقه في السموات والأراضين والجبال والبحار حتى تعمل عقولنا بالفكر ويزال عنها صدؤها ثم يترك لنا الخيار بعد أن يضيء لنا طريق الهداية دون إكراه أو حجر على العقول.

فيقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول مخاطبًا نبيه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. ويقول الله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن ثم يتحمل الإنسان تَبِعات اختياره. وما كل ذلك إلا لرفع شأن العقل الإنساني وتقديره.

وعمدَ النبى ﷺ فى قومه إلى تحريرهم وتخليصهم من ربقة الجهل والتخلف الفكرى، فحينما رأى أجلَّ أمورهم رهينة بين جناحى الحمام نهاهم وقال لهم: «لا طيرةَ فى الإسلام».

وعند موت ولده إبراهيم حينما تصادف أن كسفت الشمس، فقال أصحابه: إن الشمس كسفت حزنًا على إبراهيم! فقال لهم النبى ﷺ رادًّا عليهم قولهم: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله».

ولا ريب أن الإنسان كلما فقه أحوال الموجودات من حوله نفذت بصيرته وبلغت حكمتُه، وازداد إيمانه وخشوعه لله، وتلك ثمرة إعمال الفكر.

لذا يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ويعنِّفُ اللهُ سبحانه وتعالى هؤلاء الذين سكنت عقولهم وتقهقرت متخلفة عن المسيرة، وألقت بنفسها فى جب الجهالة رغم ما وهبهم من حواس الإدراك من سمع وبصر وأفئدة تعينهم على التفكر والتدبر؛ فيقول تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويعيب الله على اليهود حينما أنزل عليهم التوراة ليعقلوها ويعملوا بما فيها، فما كان منهم إلا أن حفظوها عن ظهر قلب دون وعى وتفكير فى أحكامها. فيقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

فالله يحذِّرنا أن نكون أمثالهم.

والنبى ﷺ ينذر هؤلاء الذين يجعلون الناس يفكِّرون لهم ويقررون لهم فى حين يظلون خامدى الفكر، لا يحاولون تهييج جذوة العقل فيهم؛ لتصبح لهم استقلالية فكرية، ورأى ربما أكثر عقلانية ورجاحة.

فيقول: «لا يكون أحدكم إمَّعَة».

ومعنى ذلك: إن أحسن الناس تبعوهم بالإحسان، وإن أساء الناس أساءوا مثلهم.

إذن، فالإسلام - متمثلاً فى القرآن الكريم والسنة المطهرة - لم يدخر جهداً للأخذ بيد الإنسانية نحو التنوير العقلى والبحث الحثيث الباعثين إلى رقى الأمم.

عِلْمٌ

يقــول الله تعـالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًــا﴾ [طه: ١١٤].
ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ويقول: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١].

إذن لا غَــرْوَ أن دينًا كانت أول تعــاليمــه ﴿اقْرَأْ﴾ بأن يحض تابعيــه إلى اعتــلاء صهوة العلــم، وليس بالغريب أن تُرفع فــيهم مكانة العالم حتى تكاد تصل إلى مكانة الأنبياء.

فقد أمر الله نبيه قائلاً: «قل ربى زدنى علمًا» فهو بعلمه سيزداد خشيةً لله لما انتهى إليه من معرفة بقدرته وعظمته فى خلقه، كذلك يدفع بنى الإنسان إلى الاســتقراء إلى النظر فى خلقــه دفعًا حثــيثًا فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

ويلهب العقــولَ بالأسئلة لتــشتغلَ بالبــحث والتعلُّم ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١]. وكــان الــنبى ﷺ حــريصــا على تــوجيــه الأمــة

الإسلامية إلى تحصيل العلم وترغيبهم فيه؛ فيقول: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

ويقول: «فضلُ العالِم على العابد كفضْلي على أدناكم».

ويقول: «مَن سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل اللهُ له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم لَيستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

ويقول: «إذا مات ابنُ آدم انقطعُ عملُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ويقول: «لَموتُ قبيلةٍ أيسَرُ مِن موت عالم».

ويقول: «هلاكُ أمَّتِي في شيئين: تركُ العلم؛ وجمع المال».

ويقول: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

ويقول: «كنْ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا، ولا تكن الخامسة؛ أي مبغضًا فتهلك».

وبالتالى انطلقَ المسلمون فى كل صَوْبٍ بعزمٍ شديد ينتهلون العلوم؛ فبزغ منهم أفذاذ أناروا العالم، وبعثوا بعلمهم أممًا لبثت فى رقادها قرونًا متخلفة، كما أحيوا حضارات من تحت ركام مئات السنين، فكان الرجل منهم يركب ناقته ويقطع الفيافى شهورًا مخاطِرًا بنفسه بين شقوق الجبال وعُرضةً للصوص ليتعلم مسألة واحدة.

إسلامى حضارة

بينما كانت أوروبا والعالم يتخبطون فى ظلام الجهل، كان المسلمون العرب فى أوج ازدهارهم الثقافى، فنهلوا علوم الفرس، ولم تكفهم، فانتقلوا إلى علوم الهند، ولم يشبعا نهمهم، فعكفوا على ترجمة ودراسة ما خطّه فلاسفة اليونان، فنقلوا إلى العربية كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس، فحازوا علوم الدنيا كلها. وبفضل هذه الترجمة اطلع الغرب الأوروبى على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها مثل كتاب ابلونيوس فى المخروطات، وشروح جالينوس فى الأمراض، ورسالة أرسطو فى الحجارة.

ولا شك أن ثمة عوامل أدّت إلى رفع المستوى الفكرى والثقافى لدى المسلمين آنذاك، وشجعت العلماء على البحث والتنقيب فيما وصل إليه فكرُ الأمم المنصرمة، ومنها على سبيل المثال استقراب الأمراء للعلماء؛ فكان الأمراء يحرصون على أن يكون مجلسهم عامرًا بصنوف العلماء، لذلك كانوا يستقطبونهم من جميع البلاد، مع مراعاة توفير كل ما يحتاجون إليه من زاد العلم والمعيشه،

وكانت مفاخرة يتطاولون بها على غيرهم حين يحتشد العلماء فى قصر أحدهم دون الآخرين.

أما أوروبا فقد ظلت متحجرة متعثرة تحت نير الكنيسة التى باتت تتحكم فى كل شيء؛ فسكن مفكروها؛ حتى أن العالم الفلكى جاليليو صودر كتابه «حوار حول أهم نسقين فى العالم» ووقف أمام محاكم التفتيش مدانًا لمجرد انحيازه لرأى كوبرنيكوس الذى قال إن الأرض تدور حول الشمس. كما أن كوبرنيكوس هذا حرَّمت الكنيسة وقتذاك كتابًا له عن طريق محاكم التفتيش -أيضًا- (حركة الأجرام السماوية) لأنه قال فيه إن الأرض تدور حول الشمس، وإن الأرض ليست أول المخلوقات، وإنها ليست مركز الكون، بل إن الشمس هى مركز الكون.

وقامت الكنيسة التى كانت سببًا فى اندحار الدين ونبذه والاتجاه نحو العلمانيه بتعذيب العالم جردانو وهو فى السبعين من عمره حتى توفى عام ١٦٤٢ بسبب قيامه بصنع تلسكوب. وهكذا أضحى الدين بالنسبة للشعوب الأوروبية رجعيةً وتخلفًا.

وتمكث أوروبا على هذا الحال قرونًا عدَّةً إلى أن تنطلق الفتوحات الإسلامية نحو العالم لتفتح أبواب العلم المنغلقه والتى صدأت مزاليجها، لتتنشل الشرق والغرب خاصَّةً من حضيض التخلف.

فعن طريق إسبانيا المسلمة وصقلية وإيطاليا أخذت أوروبا علومها من العرب،وشهد كثير من مفكريها بأن الفضل الأول فيما آلت إليه الحضارة الأوربية من تقدم يعود للحضارة الإسلامية.

ولقد خلعت هذه الحضارة على أخلاق المسلمين العامة مُثلاً وقيمًا نادره لم تكن معروفة فى ذاك الزمان؛ فمثلاً فى فتوحاتهم لم يتعسف قواد الجيوش الإسلامية بشعوب البلاد، بل كانوا يُرسون قواعد العدل، ونشر العلم، ووضع الأسس والمثل التى تساهم فى تقدمها ورفعها من حضيض الجهل والتخلف. ولنقرأ التاريخ وننظر كيف كان حال الأندلس قبل الفتح الإسلامى فى ظل الهمجية الأوربيه آنذاك؛ فقد كانت بلادًا خربة وشعبًا مضطهدًا ينهشه الفقر تحت سياط الإقطاع والأمراء. فلم تمر مائة عام تحت الحكم الإسلامى حتى أضحت أسبانيا (الأندلس سابقًا) جنة فيحاء وقِبلة أوروبا للعلوم. ولننظر إلى سوريا كيف كانت تحت حكم القياصرة وما صارت إليه بعد الحكم الإسلامى.

وضربت الجيوش الإسلامية الفاتحه المَثل فى السماحة والخلق القويم، فكان العرف فى الأمم السابقة أن الغزاة إذا دخلوا بلدًا قتّلوا وذبّحوا وحرّقوا وخرّبوا كل ما تصل إليه أيديهم، فهكذا فعلت الحملات التتاريه والمغولية والصليبيه ضد بلاد الإسلام، ومما

تقوم به أيضًا تسخير الشعوب لخدمة شعوبها ونهب ثرواتهم وشحنها إلى بلادهم.

أما الفتحُ الإسلامى، فكان على النقيض؛ إذ كان جُلُّ همه كيفية اصطحاب الشعوب لمسايرة الحضارة الإنسانية، بل وإسهامها فيها، فلا تقعد مكتوفة الأيدى متقوقعة على نفسها، وعلى هذا النهج صارت الفتوحات، فلم تصفع كرامة الإنسان وقدسيته، ولم تُخرِّب وتُدمِّر، على عكس ذلك تمامًا؛ مدّت يدها بالخير والتسامح، مما كان له الأثر البالغ على الناس، وفى هذا يكمن سرُّ إقبال الأسبان وغيرهم على اعتناق الإسلام أفواجًا دون ضغوط، أو حملهم عليه.

هذا فى الوقت الذى كانت الانقلابات والصراعات تنشب فى أوروبا والعالم الخارجى بين شعوبها الكادحة من جهة والإقطاع والأمراء من جهة أخرى، وانحطاط العقل الإنسانى إلى أقصى مراحل التخلف، كانت البلاد الإسلامية مقبلة بشهية مفتوحة على العلم، فتدور فيها المناظرات والردود بين علمائها من كل الأقطار عن كتاب يونانى قديم بين مؤيِّد لآرائه ومعارض ومتحفِّظ على بعضه، أو عن تفنيد لآراء الفلاسفة، أو نشوء مذهب فلسفى جديد.

ورغم وجود اضطرابات داخل الدولة الإسلامية وانقسامها إلى دويلات فى الباطن، لم يُنَحِّ العلم جانبًا ليتفرّغ الأمراء للصراعات الدائرة، بل ظلوا حريصين عليه، وكان من شأنهم للاحتفاء بالعلماء ما سبق ذكره.

ومِن مظاهر عظمَةِ علماء الإسلام: احترام نتاج المعلمين الأوائل؛ فلم ينسبوا إلى أنفسهم أعمالاً لم يعملوها كما حدث من علماء أوروبا إبان عصر النهضة الأوروبية. لذلك يقول العالم الإسلامى الشهير ابن الهيثم: «إذا وجدتَ كلامًا حسنًا لغيرك فلا تنسبه إلى نفسك، واكتف باستفادتك منه».

ولم يطمسوا حضارات غيرهم بحرق كتبها وآثارها كما فعل المغول ببغداد، فسوى القتل والنهب أحرقوا الكتب وطرحوها فى نهر دجله.. حتى أصبحت مياهه سوداء من مِداد الكتب، ولكثرتها كان بإمكان الناس عبور النهر فوقها بعد أن كونت جسرًا من المخطوطات التى ظل علماء الإسلام يخطونها ويجمعونها عشرات السنين. وأيضًا ما فعله رئيس الاساقفة الأسبانى (أكزيمينيس) بعد خروج المسلمين من الأندلس، فقد أحرق كل ما استطاع جمعه من مخطوطات المسلمين التى تقدر بثمانين ألف كتاب ليمحوَ ذكرهم من صفحات التاريخ الأسبانى إلى الأبد.

ولم يحمد الغـربُ جَهْدَ علماء الإسلام، بـل تجاهلوهم تمامًا، إلا قَلّة أبت أنفسُهم الانسياق وراء العصبية المقيته العمياء.

وكذلك لم يكن جزاءُ المسلمين لِما أسْدَوْه للحضارة الغربية إلا كجـزاء (سِنمار)، وبـدا هذا جليّاً إثر ضـعف المسلمين بالأندلس حينما أجبروهم على اعتناق النصـرانيه، وحتى بعد اعتناقهم إياها لم يُغفر لهم ذلك، فقد أشار راهب آنذاك بضرب رقاب من تنصَّر منهم أو من لم يتنصَّر بحجة عدم معرفة صدق إيمانهم. ولكن فى نهاية الأمـر رأوْا إجلاءهم نهائيًا عن أسـبانيا بعـد إقامتهم ثمـانية قرون من التقدم والازدهار. وفى الطريق قُـتل أكثرهم؛ ففى قافلة واحـدة تضم مـائة وأربعين ألف مطرود قُـتل مـائة ألف وهم فى طريقهم إلى بلاد المغرب.

وهبطت أسـبانيـا - بعد إقـصاء الإسـلام عنها - إلى أسـفل دركات الانحطاط فى جميع المجالات.

ولقد آثرتُ فى هذا الباب عرض نبـذة عن بعض علماء العرب الذين كان لهم باعٌ فى ازدهار الحضارة الإنسانية وتقدمها. فمنهم:

جابر بن حيان (منتصف القرن الثامن الميلادى):

يذكـر (هولميارد) فى كـتابه (الكيـميـاء إلى عصر دالـتون) أن مؤلفات جـابر المترجمة إلى اللاتينيـة كانت عاملاً قـويًا فى إحياء

الكيمياء فى أوروبا، ولم يحدث أن حظيت كتبٌ بالشهرة والذيوع فى العصور الوسطى مثلما حظيت به كتبه، والتى أصبحت أساسًا لعلم الكيمياء فى أوروبا إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى.

أبو بكر الرازى (أواخر القرن التاسع الميلادى):

هو أول من حضَّر وذكر حامض الكبريتيك، وسمَّاه فى ذلك الوقت (زيت الزاج). ووضع كتابه الشهير فى الكيمياء (سر الأسرار) الذى تضمن شرحًا مفصَّلاً لمنهجه فى البحث والتجربة، ووضع كتاب (المنصورى فى الطب) الذى ترجم إلى اللاتينية، وأضحى مرجعًا يعتمد عليه فى تدريس الطب بالمدارس الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادى، وله عشرات من الكتب التى ترجمت إلى اللاتينية والتى فاقت المائتَىْ كتاب، وكان الرازى أول من قال بضرورة تجربة الأدوية على الحيوان، وأول من توصل إلى استخدام الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح المفتوحة بعد العمليات، وأول من قام بمعالجة الحمَّى مستخدمًا الماء البارد، وغيرها من الاكتشافات التى جعلت اسمه شاهقًا.

ابن الهيثم (أواخر القرن العاشر الميلادى):

من مؤلفاته كتاب (المناظر)، وهو أكثر الكتب استيفاءً لبحوث الضوء، ففيه بحث انكسار الضوء، وتشريح العين، وكيفية تكوين

الصور على شبكة العين. وقد اعترف العالم الفرنسى الشهير (فياردو) أن العالم الطبيعى (كبلر) أخذ معلوماته فى الضوء - لا سيما ما يتعلق منها بانكسار الضوء فى الجو - من كتب ابن الهيثم.

كما استفاد من بحوث ابن الهيثم عدد من علماء أوروبا مثل «روجر بيكون»، وكما قلنا «كبلر»، حتى أضحت نظرياته قاعدة أقيم عليها علم الضوء الحديث.

ابن سينا (أواخر القرن العاشر الميلادى):

أهم مؤلفاته (كتاب القانون)، ظل هذا الكتاب حتى نهاية القرن السابع عشر المرجع الأول لعلوم الطب فى الجامعات الأوروبية؛ ففيه قسَّم الأمراض لأول مرة فى تاريخ الطب إلى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية مع شرح كل مرض شرحًا دقيقًا، مفصلاً نشأته وأسبابه وأعراضه وطرق علاجه. كما كان أول من اكتشف مرض الانكلوستوما، وأول من قام بحقن المريض تحت الجلد، وأول من استخدم التخدير عن طريق النباتات.

ووضع مؤلَّفَهُ الفلسفى الشهير (كتاب الشفاء) الذى يقع فى سبعة عشر مجلدًا، مقسَّمًا إلى أربعة اقسام: فى المنطق،

والطبيعة، والرياضه، والعلم الإلهى. ومن خلاله يتضح أن ابن سينا صاحب فكرة الاعتماد على التجربة فى البحث، وقد وضع لها شروطًا تشبه تلك التى نادى بها (جون ستيوارت ميل) من بعده.

ابن النفيس (النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى):

هو عبقرى الطب الذى جعل من معارف التشريح علمًا مستقلاً، وكشف أسرار القلب، واكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل (وليم هارفى) بأربعة قرون. ففى منتصف القرن السادس عشر الميلادى نشر الطبيب الإيطالى (إلباجو) ترجمة باللغة اللاتينية لأجزاء كثيرة من كتاب ابن النفيس (شرح تشريح ابن سينا)، وبعد ست سنوات على نشر هذه الترجمة ظهرت ثلاث مؤلفات لثلاثة من علماء الطب فى جامعة (بادوا) الإيطالية تتحدث عن الدورة الدموية الصغرى وهم: (ميجيل سيرفتوس) الأسبانى الأصل، و(ريالدوا كولومبو) الإيطالى و(أندريًا سيزالبيتو) الإيطالى. ثم جاء (وليم هارفى) الإنجليزى فى القرن السابع عشر الميلادى وكان قد تخرج من جامعة (بادوا) الإيطالية، فوصف الدورة الدموية الكاملة الصغرى والكبرى فى كتابه (دراسات تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم فى الحيوان) ولم يُشِرْ فى كتابه هذا إلى

مصادره العـربية أو الإيطالية. وظن علمـاء الطب فى العالم طيلة سـبعـة قـرون أن (وليم هارفى) هو مـكتـشف الدورة الدمـوية الصغرى.

* وهناك الخوارزمى مبـتكر الكثير مـن بحوث الجبـر التى ما زالت تدرَّس حتى الآن فى المدارس.

وثابت بن قرة الذى نبغ فى الطب والرياضيات والفلك والفلسفه ويعتبـر أحد الذين مهَّدوا لوجود أهم فـروع الرياضيات وهو علم التكامل والتفاضل.

و على بن سليـمان الطبيب المصـرى الذى وضع أول رسالة فى العلوم عن انقسام الذرَّة.

ولقد ظل العرب منذ فجر الإسـلام وحتى القرن الخامس عشر الميلادى هم الطليـعةَ فى ميـدان الرحلات والاكتشـافات، إلـى أن انطلقت من أوروبا حـركة الاستكشـافات الحديثـه على يد هنرى الملاح، وفاسكو دى جاما، وكولومبس، وكان قبلهم رحالةٌ عربٌ مثل اليـعقوبى، وقدامـه، والبلخى، وابن حوقل. ونتج عن هذه الرحلات مـراجع جغـرافية هامـة مثل: مـعجم البلدان ليـاقوت الرومى، وعـجـائب البلدان لابن دلـف بن مـهلهل، والمسـالك والممالك لابى عبيد البكرى الأندلسى، ومروج الذهب للبيرونى،

و مؤلف ابن بطوطة «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذى يعتبر من أهم المصادر التاريخيه الجغرافيه عن حياة الأمم الشرقية فى القرون الوسطى. وغيرها من المراجع الهامة التى سدَّدَتْ خطى الرحّالة مِمَّن جاء بعدهم.

وما تقدم غيضٌ من فيض ممن أثْرَوا وساهموا فى تقدم ودفع عجلة الحضارة الإنسانية، وفتح آفاق رحبة جديدة فى شتَّى علوم المعرفة أمام البشرية.

ولا ريب أن هناك ثلة من المفكرين الغربيين جاهدوا بقدر عزمهم لإعلان الحقيقة، ونشروا آراءهم صراحة دون مواربة عن فضل الحضارة الإسلامية على العالم. ونختم هذا الباب ببعض أقوالهم:

برنارد شو: «أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلَّمَ زمامَ الحكم فى العالم بأجمعه لتمَّ النجاح فى حكمه ولَقادَه إلى الخير، وحلَّ مشكلاته على وجهٍ يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة».

جوليفيه كارتلو: «كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول جرى أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً للانتشار الإسلامى، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، وقامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ظهر أثره فى الفنون والآداب والشعر والعلوم،

وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون على مشعل النور العقلى، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين».

غوستاف لوبون: «إن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافى، فكانوا مُمَدِّنين لنا وأئمةً لنا طيلة ستة قرون».

العلامة سيديو: «إن العرب هم فى الواقع أساتذة أوروبا فى جميع فروع المعرفه».

كربنسكى: «إن الخدمات التى أدَّاها العربُ للعلوم غير مقدَّرة حقَّ قدرها من المؤرخين، وإن البحوث الحديثة قد دلَّت على عظم دَيننا للعلماء المسلمين، الذين نشروا نور العلم حينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى، وأن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق، بل زادوا عليها وقاموا بإضافات هامة».

بونال: «إن الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب فى الحفاظ على التراث اليونانى وتدوينه والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد برعوا فى ذلك، وإنهم تفوّقوا على الإغريق بأن جعلوا العلم سهلاً مستساغًا، فأقبل الناس على النهل منه، وكانت ميزةً انفرد بها العالم العربى».

الإنسان عدوّ الإنسان

لا أجد هنا تفسيراً لما يحدث للأمة الإسلامية فى العالمين القديم والحديث من معاناة على أيدى أصحاب الديانات الأخرى سوى اعتبارها سنن الحياة تسير فيها، كما سارت على أمم من قبل من أجل رفع راية التوحيد، وإلا فما معنى إبادة شعوب مسلمة مسالمة فى فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان والعراق وكشمير وألبانيا وأفغانستان حاليًا بحجة محاربة الإرهاب وغيرها، مع إلحاق الفتن والاضطرابات داخل البلاد الإسلامية، ودعم معارضى حكوماتها لأسباب معلومة وواضحة، ناهيك عن الاضطهاد النفسى للمسلمين فى بلاد الحرية وحقوق الإنسان.

ومن العجيب - والمثير للحنق معًا - أنهم لا يألون جهدًا فى الدفاع عن شاذٍّ جنسيًا مع اعترافهم بحقهم فى اللواط وبحقهن فى السحاق مع ما فيهما من تغيير للفطرة الإنسانية تحت شعار ما يسمى بالحرية الشخصية، وفى نفس الوقت يقفون فى وجه الضعفاء لمجرد مطالبتهم بحقهم الإنسانى فى بيت آمِنٌ يحيطه الدفءُ الأُسرى والحق فى الحياة، وينكسون رؤوسهم ويتغاضون

بل ويمدون الوحوش البشرية بكل مقومات الحياة وآلات الاعتداء على الآخرين.

حتى أنه أصبح أمرًا مألوفًا أن تجد دبابة فى مواجهة طفل لا يتعدى العاشرة من عمره، أو يُلكم بقبضات حديدية عمياء، أو يُدهس ويُركل بالأقدام، أو يقتل دون رحمة، وهذه المشاهد كثيرًا ما تناقلتها الصحف وبثتها شاشات التلفزيون العالمية على مرأى من الجميع.

ولا تقوم الدنيا أو تقعد إلا عندما ترتدى فتاةٌ حجابًا أو زيًا إسلاميًا محتشمًا، فيقولون: ليس هذا من الحرية الشخصية، ولكن هذه عنصرية بغيضة.. هكذا «بغيضة» بسرعه يجدون المبررات حتى يضفوا على قراراتهم مشروعية.

وتُقصف وتُحاصَر العراق ويموت شعبها بالآلاف تحت مسمى إلزامها بقرارات الشرعية الدولية، وتدمر افغانستان ومِن قبلها السودان والبقية تأتى، تحت مسمى محاربة الإرهاب، مع أن هناك إسرائيل فى الجهة المقابلة لا تلتزم بقرارات شرعية دولية ولا إنسانية، ولا بميثاق حقوق الإنسان، وخيرُ دليلٍ على ذلك إلقاء نظرة واحدة على الساحة الفلسطينية، ودليل آخر أن يرأس حكومتها سفاح ارتكب أفظع جرائم فى التاريخ الإنسانى، يتساوى بل يفوق هتلر ومن شاكله.

المهم: نعود إلى موضوعنا، وهو ما يحدث للأمة الإسلامية من ابتلاءات، فقد قلنا إنها سنن الحياة تلقى على كاهل الرسل وأتباعهم عبء التبليغ.

فقد بعث من قبل نوح عليه السلام إلى قومه، ومكث بينهم ألف سنة إلا قليلا يدعوهم لوحدانية الله، فلم يجد منهم إلا أذى واستكبارًا واستهزاءً به وبمن معه من المؤمنين، وتجرَّأوا عليه وازدجروه، واتهموه بالجنون إلى أن قالوا له بوقاحة ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقالوا له أيضًا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وأيضًا سيدنا إبراهيم يتكالب ويتهافت عليه قومه وهم يتصايحون: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وها هو ذا نبي الله هود بين قومه يزجرونه ويُغلظون له القول ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وزادوا القول فحشًا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ثم أعجبتهم قوتهم وكثرتهم وما وصلوا إليه من حضارة، فأصابهم الغرور والكبر، وقالوا بغطرسة وعنجهية وبأطراف أنوفهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وكان جزاء لوط في سدوم - ويا للعجب - لاستقامة خلقه وترفعه عن الدنايا التي يقترفها قومه وإلحاحه بنصحهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

ثم هاج سخطهم عليه حتى ائتمروا عليه: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولم تكن ثمود أحسنَ خُلُقًا ممن سبقهم؛ فها هم يقولون لنبيهم صالح: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

ثم عقروا ناقته وهمُّوا بقتله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

ونبيُّ الله شعيب يرى أهل مدين يُنقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويعبدون الأوثان والأصنام من دون الله، فيعظهم وينصحهم، فيقولون له بازدراء واشمئزاز: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ونبيُّ الله موسى وقومه إذ يتوعدهم فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ

﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وأيضًا يلقَى موسى من قـومه ما لقيه معـهم من فرعون، و لم يشفع له مـا أسداه لهم حتى خلّصـهم من عبودية فـرعون، ولم يرعوا علو قدره عند الله، فـيقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

والسيدة مـريم الطاهرة العفيفـة العابدة المتعبـدة، ربيبة نبى الله زكريا، يقذفـها اليهود بأشنع التـهم: بالزنا، وهى من بيت نبوة، مع علمـهم بذلك، فقالـوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧].

وقابلَ اليـهودُ معجـزات السيد المسيح الدالَّه على صـدق نبوته بالكذب واتهـامه بالسـحر فـقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِـحْرٌ مُّـبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وسعَوْا حثيثًا للفتك به ووضع العـراقيل أمام دعوته، والتشهير به كما شهَّروا من قبله بموسَى، ومِن بعده بمحمد عليهم السلام.

ولم يسلم محمد ﷺ من الإيذاء والتكذيب؛ فقيل له كما قيل لإخوته الرسل: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ورمَوْه بالجنون فقالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وتمادَوْا فى استصغـار شأنه فقالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وحاولوا مرارًا قتله، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره؛ فأمره غالب.

وكذلك الشعوب - أتباع الأنبياء - عانت، فقد عانى اليهود من أجل ثباتهم على دينهم، فسامهم فرعون وجنوده سوء العذاب، ومن العجيب أن لقى أتباع المسيح من اليهود صنوف العذاب حتى يرجعوا عن المسيحية إلى اليهودية عنوة وأعملوا فيهم السيوف وشقوا لهم الأخاديد، وأشعلوا فيها النيران، ثم ألقوا فيها أتباع المسيح حتى قتل منهم ما يقرب من عشرين ألفًا فيما عرف بعصر الشهداء.

ومن بعدهم تدورُ الكَرَّةُ على المسلمين؛ فيعذَّبون على أيدى اليهودية والصليبية حتى يومنا هذا، إنها سنن الحياة، وسبحان من يداول القوة بين الناس من كسير وضعيف إلى قوى وعات، ثم لا تلبث هذه القوه أن تَحُول إلى ضعف وذل آخر، فسبحان الله.

ولا أدرى لماذا يكره العالم نفسَه ويحمل جُلَّ البغض للإسلام وهو الذى يقر بجميع الرسل والكتب المنزلة من عند الله دون تفريق بين أحدهم؟! فتقول الآية آمرة أتباع الإسلام: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ألأنه يحضُّ على مكارم الأخلاق فى زمن طغت فيه المادة على كل القيم والمثل؟

فلمَ لا ينظرون إلى مفاهيم الإسلام ويأخذونها من أصلها بدلاً من الغوغائية والتشويه الذى يبثه الإعلام الصهيونى؟

أفلا ينظرون إلى قوله تعالى فى الحضِّ على الرفق فى الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

أفلا يطيلون الفكر فى قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

وفى تربية النفس وتهذيب الأخلاق والرقى بالسلوك العام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا

فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨]. ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ⑱ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩]. ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وهناك آيات لا حصر لها فى القرآن الكريم نزلت لتقوِّم الأخلاقَ وتضع الحدودَ لسلامة البشرية وصيانتها. لذلك يقول الله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ويقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]. ثم يقول ناصحًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

وبعــد هذا العرض الموجــز، أفــلا يتدبر هــؤلاء الذين ينعتــون الإسلام بالوحــشية؟ أفــلا يعدلون بعد وقــفة مع النفس والرويَّة؟ ولكَمْ أرجــو أن تصم الآذان - مع هذه الوقفــة - حين من الوقت عن الإعلام المستهدَف، وعن هذه النظريــة القميئة: نظرية الكاتب هنتنجتــون - الصراع بين الغرب المسيــحى والشرق المسلم، والتى أطلق عليهــا تمويهًا وتلطفًا: صراع الحــضارات - والتى ترمى إلى إيجاد عدو بعد الشيوعية؛ لتــجعل الشعوب الغربية دائمًا فى حالة استنفار، وفى حالة تعبئة، وفى حــالة صراع نحو التقدم، ولتوليد الحمية الوطنية داخلهم، ومن ثم العمل دون كلل حتى لا يفوقهم عدوُّهم. نعم لقــد أوجدوا لهم عدواً وهو الإسلام، ونجــحوا فى ذلك، ولكن قد يــخسر الغــرب الكثير لانســياقــه وراء حفنة من المفكرين المأجورين.

وأخيرًا.. كيف ترون الإسلام؟ ننتظر الإجابة.

****

المراجع

١- الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفورى- مكتبة التقوى.

٢- إسرائيل بين البداية والنهاية - د. محمود دياب- مكتبة الأنجلو المصرية.

٣- منهاج المسلم - أبو بكر جابر الجزائرى - مكتبة الإيمان.

٤- فقه السنة - الشيخ السيد سابق - الفتح للإعلام العربى.

٥- مكاشفة القلوب - لابى حامد الغزالى - مطبعة الأنوار المحمدية.

٦- إحياء علوم الدين - لأبى حامد الغزالى - دار الريان للتراث.

٧- دليل الفالحين - لمحمد بن علان البكرى المكىّ - دار الحديث.

٨- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - المكتبة القيمة.

٩- منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمع - د. عبد الحليم محمود - الهيئة العامة للكتاب.

١٠- هموم الأمة الإسلامية - د. محمود حمدى زقزوق - الهيئة العامة للكتاب.

١١- علماء العرب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٢- علماء العرب - أ. سليمان فيـاض - مركز الأهرام للترجمة والنشر.

١٣- حضارة العرب - غوستاف لوبون - الهيئة العامة للكتاب.

١٤- دولة الإسـلام فى الأندلس - أ. محـمـد عبـد الله عنان - الهيئة العامة للكتاب.

١٥- معًا علـى الطريق - أ. خالد محمـد خالد - الهيئـة العامة للكتاب.

* بالإضافة إلى دوريات ومقالات وبحوث نشرت بالصحف.

فهرست



الكاتب والكتاب

*** الكاتب :**

– من مواليد محافظة أسوان عام ١٩٧٣ م .

– صدرت له من قبل مجموعة قصصية بعنوان (الفوارس) عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

– له تحت الطبع مجموعة قصصية بعنوان (سلام الحمام) ورواية بعنوان (غداً تغرد العصافير) .

*** الكتاب :**

يتصدى للنظرة الغربية الشائعة عن تخلف الإسلام، ويوضح موقفه من عدة قضايا تثير الجدل منها : الشورى، والمرأة، والحضارة، والإرهاب، والعلم، والفكر .

رقم الايداع : ٢٠٠٢/١١٤١٠ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى I. S.B.N:977-241-431-7